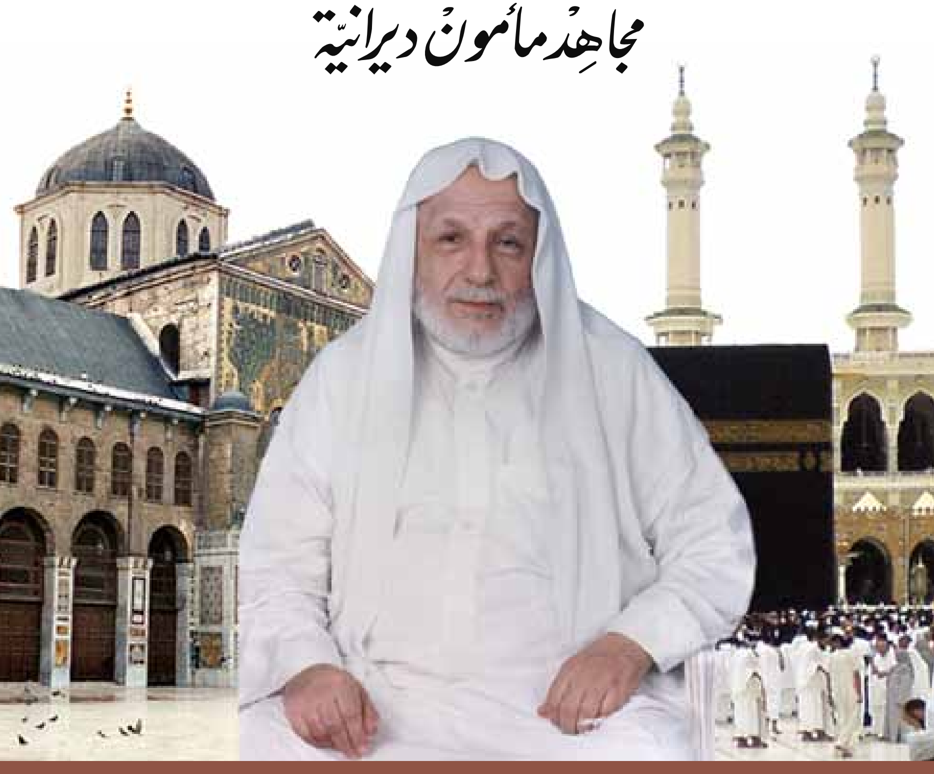
الأفكارُ الطّنطاويّةَ

الاستعمار وفلسطين

استخرجها من كتابات المؤلف ورتبها حفيده

مجاهِدْ مأمونْ ديرانيّة



دارُ المنارة

بسم الله الرحمن الرحيم

الأفكار الطنطاويّة

الاستعمار وفلسطين

استخرجها من كتابات المؤلف المطبوعة
والمخطوطة وجمعها ورتّبها حفيدُه

مجاهِد مأمون ديرانيّة



الطبعة الإلكترونية الأولى
٢٠٢٣



أسسها الشيخ نادر حتاحت رحمه الله عام ١٩٨٤

ص ب ١٢٥٠ جدة ٢١٤٣١ المملكة العربية السعودية
هاتف ٦٦٠٣٦٥٢ فاكس ٦٦٠٣٢٣٨

info@daralmanara.com
www.daralmanara.com
daralmanarapublisher

مقدمة الأفكار

هذا عمل أمضيت في التحضير له عامين كاملين، ثم استغرق مني عدة أشهر من العمل المتفرغ الدؤوب لأنهيه في صورته التي يخرج بها اليوم على الناس.

لقد بدأت أولاً بكتب جدي رحمه الله فأعدت قراءتها كلها (وهي نحو أربعين مجلداً) وقرأت معها ما لم يُنشَر في الكتب بعد، من مقالات قديمة وكتابات مخطوطة، ومن ذلك كله استخرجت نحو ألفٍ من المقاطع الصغيرة التي سمَّيتُ كلّاً منها «فكرة» من «الأفكار الطنطاوية».

* * *

إن كاتباً أقل شأناً من علي الطنطاوي ما كان له أن يُمضي ثلاثة أرباع القرن في الكتابة والخطابة والإذاعة ثم لا يعيد أفكاره ولا يكرر صوره وألفاظه، بل إن تكرار الأفكار أمر مرغوب مطلوب لمن كان همُّه تركيزَ هذه الأفكار في الأذهان أو جعلها أفعالاً في حياة الناس.

ولقد واجهت في عملي بهذه المجموعة الكثيرَ من مثل هذا التكرار، فأبقيت على بعضه -ممّا تنوعت مفرادات ألفاظه وتباينت صورُ عرضه- وضحَّيت بالكثير، ولولا ذلك لتضخمت هذه الكتيّبات حتى تضم القَدْرَ الأوفر من كتابات علي الطنطاوي، فهو قليلاً ما كتب للتسلية وتَزْجية الوقت، وقليلاً ما تحدث ليُطرب ويسلّي، أما عمدةُ حديثه وعمودُه وعمادُه على مر السنين فقد كان دعوةً إلى الله والخير والفضيلة، وفي سبيل إصلاح الدين وإصلاح الحياة، كل عناصر الدين وكل عناصر الحياة.

ولا بد أنني سهوت عن بعض «الأفكار» التي كان من حقها أن تضمّها هذه المجموعة، بل لا آمَنُ أن أكون قد فقدت شيئاً منها وأنا أجمعها أولاً، ثم أوزّعها على الكتب ثانياً، وأرتبها في نَسَق ثالثاً، فإنْ يكن شيءٌ من ذلك حصل فإنّ فيما بقي غَناءً عمّا ذهب، ولعلي أعود إليها ببعض التنقيح في الطبعات الآتيات إذا يسّر الله لها القبول والرواج بإذنه.

أما العمل الأصعب والأدق فكان توزيع «الأفكار» على الأجزاء المختلفة التي تكونت هذه المجموعة منها، ثم في ترتيبها في كل كتاب ترتيباً

مناسباً. فأنا مصاب بهاجس قسري لا أستطيع مقاومته ولا أملك التحكم فيه، يدفعني إلى ترتيب كل شيء أشتغل فيه ترتيباً يناسبه، فإن لم يتحقق لي ذلك لم أصل إلى الرضا عن الذات (ذلك الذي زعم عالم النفس الأميركي أبراهام ماسْلو أنه يستوي على قمة هرم الحاجات البشرية).

وهذا أمر لا نهاية له ولا يصل إلى قرار، فالمرء لا يزال كلما نظر إلى عمله قال: لو قدّمت هذا لكان أفضل، ولو أخرت ذلك لكان أجمل، ولو حذفت ذاك لكان أكمل... وهو قولٌ معروف في هذه الصناعة، الكتابة، ما يزال بعضهم ينقله عن بعض، وإن زعم الزاعمون أن القاضي الفاضل هو أول من كتبه في رسالة أرسلها إلى العماد الأصفهاني ذات يوم.

* * *

لقد بدأ هذا العمل بذرة صغيرة في ذهني، ثم مَنَّ الله عليّ وأكرمني فنَمَت البذرةُ حتى صارت ساقاً، ثم استطالت الساق وتفرعت أغصاناً وأوراقاً، فكانت منها هذه المجموعة من الكتب.

لمّا كتبت كتاب «علي الطنطاوي، أديب الفقهاء

وفقيه الأدباء» بطلب من الناشر الأديب والصديق الفاضل محمد علي دولة رحمه الله، وكان ذلك منذ عشرين سنة، طلب مني أن أكتب عن الشيخ كتاباً كبيراً ينشره في سلسلة «أعلام المسلمين»، وهي سلسلة أخلص فيها النيّةَ فبارك الله له فيها، فغدت مكتبة فريدة قائمة برأسها تضم عشرات وعشرات من الكتب التي ترجمت لمتقدمين ومتأخرين من أعلام الإسلام.

فوافقته إلى طلبه وعزمت على كتابة كتابٍ وافٍ عن علي الطنطاوي، وبدأت بإعداد المادة وكتابة المسوَّدات، وتشعب عليّ العمل واتسع فطال الوقت ولم يخرج الكتاب، شغلني عنه إخراج كتب جديدة للشيخ وإعادة إخراج ما صدر له من قبل، وشواغلُ أخرى مما تزدحم به حياة المرء مِن ضرب في سُبُل هذه الدنيا. وكان من الأبواب الأساسية في الكتاب باب يعرض أفكار علي الطنطاوي.

ذلك كان مبدأَ هذه المجموعة من الكتب، فالحمد لله الذي وفق وبارك حتى استحالت تلك الفكرةُ الصغيرة في رأسي إلى ألف فكرة يضمّها اثنا عشر كتاباً، والذي أعان ويسّرَ حتى غدت تلك البذرة

(التي بدأ الأمر بها) دَوْحةً باسقة مورقة، وأسأله -عزّ وتبارك- أن يوفقني إلى إنهاء الكتاب الموعود عما قريب.

* * *

أخيراً حرصت على تذييل كل «فكرة» بالإشارة إلى مصدرها، اسم الكتاب واسم المقالة وتاريخ نشرها إن كانت منشورة أو تاريخ كتابتها إن كانت مخطوطة غيرَ منشورة، فإن الأزمان تتبدل والأحوال تتغير، ومعرفة الوقت الذي كُتبت فيه الكلمة يساعد على فهمها في سياقها الصحيح.

أسأل الله أن ينفع بهذه «الأفكار» وأن يثيب كاتبها خير الثواب ويرفع مقامه في جنات النعيم، وأن يجعلني شريكاً له في الجزاء ورفيقاً له في دار البقاء.

مجاهد
غرة رجب ١٤٤٠
آذار ٢٠١٩

mujahed@al-ajyal.com

لقد انتهى عهد الاستعمار الذي كانت ترفرف راياته فوق أرضنا وتخطو جنوده على ثرانا، وخَلَفه استعمار آخر شَرٌّ منه، لا يحمل أخطارَه غرباء عنّا ولكن ناس منّا من أبنائنا، أخذهم الاستعمار فربّاهم على ما يريد هو فأتمّوا ما بدأ به، بل سبقوه وجاؤوا بما لم يقدر على أن يأتي بمثله!

ولكن ذلك -إن شاء الله- لا يدوم.

-١-

إن المسلمين اليوم في نكبات وفي أخطار، قد أحاط بهم أعداؤهم، يرسمون الخطط لحربهم وحرب دينهم، ويبذلون لذلك كرائِمَ الأموال ويسخّرون لذلك أكابِرَ المفكرين ويستعينون على ذلك بكل وسيلة. فما النجاة وأين الطريق؟

إن الجواب في التاريخ، فسائلوا صحائف التاريخ: ما الجواب؟ بل خذوا صفحة منه واحدة، فإن هذا الفصل القصير يضيق عن سرد الصحف الطِّوال. اذكروا يوم قامت أوربا كلها على ساقيها، فمشت إلينا بقضّها وقضيضها على اختلاف أجناسها ولغاتها، يحدوها التعصب الأعمى ويدفعها الحقد الذي يأكل الأكباد، وحطّت بثقلها على فلسطين، على هذه البقعة الضيقة من الوطن الإسلامي. من الذي وقف يومئذ في وجهها ونهض لردّها؟

إنه -يا سادة- البطل التركي المسلم نور الدين، والبطل الكردي المسلم الذي جاء من بعده، صلاح الدين. لقد وضع الأول الأساس ورفع الثاني الشّرُفات والذُّرى، وفتح الأول بابَ المعركة وتابع الثاني حتى

جنى النصر. فبماذا انتصر صلاح الدين في حطين، وبِمَ استرجع القدس بعدما لبثت في أيدي الصليبيين لا عشرين سنة ولا ثلاثين، ولكن أكثر من تسعين؟

إن صلاح الدين انتصر لأنه دعا بدعوة الإسلام، لم يدعُ بدعوة الجاهلية ولا نادى بشعائر الكفار، ولم يرفع راية مذهب باطل ابتدعه أهل الضلال من البشر بل رفع راية القرآن الذي أنزله رب العالمين وخالق البشر، انتصر لأنه ضرب بسيف محمد، وسيف محمد ﷺ لا ينبو ولا يكِلّ، وسيف محمد ﷺ لم يضرب به أحدٌ إلا انتصر.

فيا أيها المسلمون، هذا التاريخ تشهد صفحاته أنه ما نزل بالمسلمين خطب إلا ردّته عنهم دعوة الإسلام إذا صدقوا الدعوة بها، وإن الخطوب التي تحيط بالمسلمين اليوم لا يردها عنهم ولا ينجيهم منها إلا دعوة الإسلام.

[نور وهداية: هذا هو الطريق (١٩٦٩)]

-٢-

كلما دهمكم خطب جديد، أو هَبَّتْ عليكم من نحو فلسطين عاصفةُ عدوان، فاذهبوا إلى نور الدين وإلى صلاح الدين، لا لتسألوهما العون والنصر فما في الوجود ميت يعين حياً، ولست أدعو إلى شرك بالله، وما النصر إلا من عند الله، ولكن لتذكروا أنها قد حاقت بفلسطين من قبلُ مصائبُ أكبر من مصيبة اليهود، ونزلت بها نوازل أشد، واجتمعت عليها أوربا كلها، وأقامت فيها دولاً لبثت أكثر من مئة سنة، وكنا على حال من التفرق والضعف والجهل شر مما نحن عليه اليوم، وقد انجلت -مع ذلك- الغمّةُ وانزاح البلاء، وصارت حكومات الإفرنج التي عاشت في القدس وفي أطراف الشام قرناً كاملاً، صارت خبراً ضئيلاً يتوارى خجلاً في زاوية من زوايا التاريخ، لا يدري به أكثر السامعين. وسيأتي يوم قريب يقول فيه مدرّس التاريخ لتلاميذه: إن اليهود قد أسسوا مرة حكومة في فلسطين، وهَمَّ العربَ أمرُها، ونال العربَ شرُّها، ثم ذكروا أين طريق الخلاص فخلصوا منها على أيسر حال.

الطريق -يا سادة- أن يظهر في العرب «نور

الدين» جديد، ينشر راية القرآن التي لم تنهزم قط، ويضرب بسيف محمد الذي لا ينبو أبداً.

فانشروا راية القرآن واضربوا بسيف محمد ﷺ تطردوا يهود وتعيدوا مجد العرب.

[رجال من التاريخ: السلطان الشهيد (١٩٥٠)]

-٣-

إن الذين يحسبون الجهاد عدواناً مسلحاً لا يدرون ما الجهاد.

الجهاد ليس حرباً هجومية نعتدي فيها على الناس، والإسلام إنما جاء لإقرار العدل وتحريم العدوان.

وليس الجهاد حرباً دفاعية بالمعنى العسكري، فما احتل الكفار مكة ولا المدينة، ولكن مَثَل الجهاد كقطر كبير أصابه القحط، فشحَّت الأقوات وعمّ الجوع وفشت الأمراض وقلّ الدواء، فجاء من يحمل المدد إلى الجائعين والدواء إلى المرضى لينقذهم مما هم فيه، فوقف في الطريق ناس يمنعونهم، يحولون بينهم وبين هذا الخير وهذا العمل الإنساني، فقالوا لهم: تعالوا شاركونا فيما نعمل تكونوا منا ولكم ما لنا وعليكم ما علينا، فأبَوا عليهم. قالوا لهم: دعونا نمرّ ونحن ندافع عنكم، لا نكلفكم قتال عدو ولا بذل روح، على أن تمدونا بشيء من المال قليل. قالوا: لا. فلم يبق إلا أن يقاتلوهم، أن يقاتلوا هذه الفئة القليلة التي تمنع الخير عن الناس... يقاتلون أفراداً

لينقذوا أمماً، وكان ذلك هو الجهاد.

وكان الخير الذي نحمله للدنيا هو الذي نزل علينا من السماء في حراء.

[فصول في الدعوة والإصلاح:
خدمة الإسلام (١٩٩٠)]

-٤-

الجهاد يكون واجباً إذا احتل العدو بلداً من بلاد المسلمين، هنالك يُعلَن الاستنفار العام ويصير القتال واجباً على الجميع، على أن يبدأ بأهل البلد الذي احتله العدو، فإن لم يَكْفوا فعلى من يليهم من جيرانهم، الأقرب فالأقرب.

والجهاد ليس القتال بالسلاح فقط، فالذي يمدّ المقاتلين بالمال مجاهد، والذي يساعدهم بالدعاية باللسان وبالقلم (إن كانت تعين على النصر) مجاهد، والذي يتولى رعاية أسر المجاهدين مجاهد، والله قدّم -بالذكر لا بالأجر- المجاهدين بالمال على المجاهدين بالنفس. إن كل جندي يقف في الميدان يحتاج إلى أربعة أو خمسة يقومون وراءه، يعدون له السلاح والعتاد والمؤن ووسائل النقل، وهؤلاء كلهم إنْ صَحَّت نياتهم مجاهدون. مع العلم بأن المجاهد هو من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، لا لمجرد الدفاع عن الوطن ولا لمجرد استرداد الأرض، ولا لتنشر الصحفُ اسمَه ولا ليعلوَ في الناس ذكرُه.

[الفتاوى ج١: لا إكراه في الدين (١٩٨٣)]

– ٥ –

إن أول كلمة في دستور الإسلام كانت «اقرأ»، لم تكن «قاتل» ولم تكن «اغْتَنِ» ولم تكن «سيطر»، لأن الإسلام ليس دين قتال ولا دين مال ولا دين سيطرة وسلطان، ولكن الإسلام دين العلم والفكر والهدى.

﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾، هذه فاتحة الرسالة الخالدة التي بعث الله بها محمداً، ما مجّد فيها الحرب ولا ذكر السيف ولكن كرّم العلم وذكر القلم، فأين يُذهَب بهؤلاء المكابرين الذي يقولون إن شرعة محمد شرعة السيف وحده؟

السيف؟ لا بد من السيف، ولكن لنزيح به من يعترض طريقنا إلى السلام، لندافع به عن حريتنا في العمل على كشف الظلمات عن العقول ورفع الظلم عن الناس، وعن حرية المظلومين الذين اشتمل عليهم الظلام في السعي إلى الاستنارة بهذا الضياء الذي بدا للدنيا كلها من غار حراء.

ما حارَبْنا إلا من حارَبَنا ولا دفعنا إلا من اعتدى علينا، وكنا نريد للناس جميعاً أن ينالهم الخير الذي

أُفيض علينا. كنا نقول لهم: تعالوا شاركونا فيه تكونوا منا، لكم ما لنا وعليكم ما علينا.

لم يكن في فتوحنا غالب ومغلوب، ولا سيد ولا مَسود، ولا أشراف وعامّة، ولا عرب وعجم، بل كان الناس عندنا قسمين: «الذين آمنوا» و«الذين كفروا»، فالذين آمنوا كلهم إخوة متساوون لا تَفاضُلَ بينهم إلا بالتقوى، والذين كفروا من أهل الكتاب يكونون في ذمتنا وعهدنا إن ساكنونا في أرضنا ولم ينقضوا عهدنا، ونؤمّنهم إن استأمنونا ونفي لهم إن عاهدونا، ولا نخشى حربهم إن هم اختاروا الحرب وحاربونا.

[من نفحات الحرم:
على غار حراء (١٩٥٦)]

-٦-

ما يقوله أعداء الإسلام من أنه انتشر بالسيف خطأ من وجهتين: خطأ لأن الدين لا ينتشر بالسيف، بل بالإقناع وبالحجة والبرهان، وبالأسوة الحسنة التي تجعله يستقر في العقل الباطن. وخطأ لأنه مخالف للواقع وللتاريخ الصحيح، فإذا أمكن أن يُقال بأنه انتشر بالسيف في البلاد المفتوحة لمّا صار للمسلمين جيشٌ وكانت الفتوح، فأيُّ قوة جعلته ينتشر في مكة والمسلمون مستضعَفون، ما لهم سيف وما عندهم قوة؟

فليس في آية ﴿لا إكْراهَ في الدِّين﴾ منافاة لحكم الجهاد، والمجاهدون ما كانوا يُكرهون أحداً على الإسلام، بل كانوا يعرضونه على الناس، فإن أَبَوْه طلبوا منهم أن يفتحوا لهم الطريق لينشروه في الأرض، ليحملوا الدواء الذي شفاهم من أمراضهم إلى المرضى الذين يأملون الشفاء، ويوصلوا النور الذي طلع عليهم من «حِراء» إلى الذين يعيشون في الظلام وفي الشقاء.

[الفتاوى ج١: لا إكراه في الدين (١٩٨٣)]

-٧-

في عمر الإنسان ساعات هي العمر، تَفنَى الليالي وتنقضي الأعمار وتخلد هذه الساعات ذكرى في قلوب البنين. وفي تاريخ الأمم أيام هي التاريخ، تمرّ السنون متحدّرة في درك الماضي مسرعة إلى هوة النسيان، وتبقى هذه الأيام جديدة لا تبلى، دانية لا تنأى، مشرقة لا تغيب. وللإنسانية أيام هي ركن الإنسانية، لولاها ما قام لها بنيان ولا ثبت لها وجود. أيام قد عمّت بركاتها وشملت خيراتها البشرَ جميعاً، أيام هي ينابيع الخير والحق والعدل في بَيداء الزمان، وهي المَفخرة لأمة أرادت الفَخار.

وما أكثر هذه الأيام الغرّ في تاريخنا! تلك الأيام التي أفضلنا فيها على العالم كله وسَمَونا به إلى ذُرى الحضارة: يوم الهجرة وبدر والقادسية واليرموك ونهاوند، وأيام قتيبة وابن القاسم في المشرق وعقبة وطارق في المغرب ومحمد الفاتح في الشمال، ويوم عين جالوت وحطين.

[دمشق: الجلاء عن دمشق (٢) (١٩٤٦)]

-٨-

إننا نتحدث دائماً عن بدر والقادسية واليرموك وحطين، وتلك الأيام الغُرّ لا في تاريخنا وحده بل في تاريخ البشر، فهل فقدنا العزائم التي انتصرنا بها في تلك الأيام؟

لقد ظفرنا في عشرة آلاف معركة خضناها، نثرنا فيها شهداءنا نثراً في كل بقعة من الأرض وتحت كل نجم في السماء، ثم سقينا أجداثهم بدمائنا، سقينا الصحارى المتسعّرة الرمال في بلاد العرب وفارس وإفريقيا، وجنان الشام والسهول الممرعة في مصر والعراق وفي أرض فارس، والأفغان والهند وأطراف الصين، وفي شواطئ البحر المتوسط التي كانت كلها أو جلها لنا وكان هذا البحر يُدعى تارة بحر العرب وتارة بحر الروم، وفي أوربا التي جئناها من الغرب بالجيش العربي المسلم حتى بلغنا قلب فرنسا، وجئناها من الشرق بالجيش التركي المسلم حتى وصلنا إلى أسوار فينّا.

أفأضعنا هذه البطولات؟ إن محمداً ﷺ صبّ البطولة صباً في أعصاب المسلمين، فما تلقى في

الدنيا مسلماً جباناً. فإن رأيتم مسلماً يخاف الموت في الجهاد في سبيل الله حين يجب الجهاد فاعلموا أنه مسلم باللسان وحده وليس مؤمناً بالجَنان. ما أضعناها، ولكن تعبنا فنمنا وطال بنا المنام.

[الذكريات ج٧: ح١٩٤ (١٩٨٦)]

-٩-

متى كان العربي المسلم، بل متى كان المسلم -عربياً كان أم تركياً أم كردياً- يهرب من مقارعة الأعداء ومقابلة الخصوم؟

إنه يستحيل أن يكون اليهودي شجاعاً أو نبيلاً، ولو قاتل بالسلاح الكثير الذي جاء به من يضعه في يده ويسلّطه به على الناس. ويستحيل أن يكون المسلم جباناً أو نذلاً، ولو أعوزه البارود أو فقد الرغيف. إنه يقاتل بالبندقية القديمة ويقاتل بالسيف ويقاتل بالحجارة، ولو كان خصمه أقوى دول الأرض. ويقاتل جائعاً أو يصبر يومه على تمرة أو يأكل الكلأ.

لا، ما هذه قصيدة فخر وحماسة بل هي حقيقة واقعة. أما ترون ما يصنع المسلمون الأفغان أمام المعتدين الشيوعيين، ودولتُهم إحدى الدولتين الكُبرَيَين في عالم اليوم؟ أليست هذه الوقفة إعادة كريمة ماجدة لموقف المسلمين الأوّلين، يوم نازلوا الدولتين الكبريَين في عالم الأمس في اليرموك والقادسية؟

إن الإسلام صبّ البطولة صباً في أعصاب

المسلمين وأجراها في دمائهم، فمهما حاقت بهم الشدائد وتوالت المحن فلن تتبدل طبيعة البطولة فيهم، والعاقبة لهم إن كانوا مع الله لأن الله سيكون حينئذٍ معهم، ومَن كان الله معه لا يغلبه مخلوق.

[الذكريات ج١ : ح٤ (١٩٨١)]

-١٠-

«الفتح الإسلامي» أكبر لغز من ألغاز العبقرية، وأروعُ أحْجيَّة من أحاجي النبوغ، وأجلّ مظهر من مظاهر العظمة في تاريخ البشر. ولقد مرّت عليه إلى اليوم قرون طويلة وأعصار مديدة، ارتقى فيها فن الحرب وتقدم فيها البشر أشواطاً في كل ميدان من ميادين الحضارة، وغاص المؤرخون في أعماق الحوادث التاريخية فكشفوا أسرارها وعرفوا أسبابها، فبدت لهم هيِّنة ضئيلة بعد أن كانوا يرونها لغزاً لا يُحَلّ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يكشفوا سر الفتوحات الإسلامية ولم يدركوا كُنْهَها. وستمر قرون أخرى وأعصار قبل أن يكشف ذلك السر، وقبل أن يرى تاريخ البشر حادثاً أعجب وأعظم من «الفتح الإسلامي».

[فِكَر ومباحث: الفتح الإسلامي (١٩٣٦)]

-١١-

إن المعجزة الكبرى في التاريخ العسكري للأمم كلها هي الفتح الإسلامي.

وقد يقول قائل: إن الإسكندر فتح بلاداً ربما بلغت ما فتحه المسلمون، وكذلك صنع جنكيز خان وتيمور لنك ونابليون وهتلر. هذا صحيح، ولكن الفرق بين هؤلاء جميعاً وبين الفتح الإسلامي أنّ فتحَ هؤلاء القُوّاد فتحٌ عسكري يقوم على القهر، يبقى فيه غالب ومغلوب، يعيش الغالب يقِظاً متحرّساً والمغلوب متربّصاً متحفزاً للأخذ بالثأر، أما الفتح الإسلامي فهو عجيب بطبيعته.

لننظر إلى البلدان التي فتحناها: لقد فتحنا سوريا، فهل تستطيع أن تميز في سوريا الآن أبناء الفاتحين الغالبين من أبناء أهل البلاد المغلوبين؟ ذلك أنه ما دخل الإسلامُ بلداً إلا استقرّ فيه وبقي. هذه أندونيسيا: لقد دخلها الإسلام من أقلّ من أربعمئة سنة، دخلها في وقت قريب من دخول الاستعمار إليها. أما الاستعمار فقد ذهب إلى غير عودة، وأما الإسلام فقد بقي فيها، وسيبقى -إن شاء الله- إلى

يوم القيامة.

ذلك لأن الفتح الإسلامي لم يكن فتحاً عسكرياً، وما فتح المسلمون البلاد ليأخذوا منها الغنائم ولا ليحكموا أهلها، بل ليشاركوا أهلها في الخير الذي أنزله الله عليهم.

[المقدمات: مقدمة كتاب «عبقرية خالد بن الوليد العسكرية» (١٩٨٦)]

-١٢-

الدنيا -يا إخوان- يومان: يوم لك ويوم عليك. وقد بدأ في تلك السنة (١٩١١) اليوم الذي كان علينا، وكان يوماً طويلاً وكان صعباً أليماً، مال فيه الميزان واشتدّ علينا الزمان، ففي الهند كانت هذه النكسة، وطرابلس (ليبيا) هجم عليهم الطليان بلا حُجّة ولا برهان، بل كما تهجم الذئاب الجائعة على القرية الآمنة في الليل البهيم. وكان الاتحاديون (وأكثرهم مفسدون ملحدون) قد عزلوا السلطان عبد الحميد بعدما شوّهوا سيرته، فكذبوا عليه ونسبوا كل منقصة إليه، واستولوا على الدولة العثمانية فأضاعوا -بجهلهم وقلة حنكتهم وفساد نيّاتهم- بلاد البلقان التي كان يحكمها السلاطين من آل عثمان.

وهُتك الستار الذي كانت تختبئ وراءه أوربا، وظهر للعيان أن الحروب الصليبية لم تنتهِ حملاتها ولم تَزُل من نفوس القوم الدوافعُ إليها، فإذا هي تتّحد علينا جميعاً في حرب البلقان، حتى إن إنكلترا نسيَت ما صنعت في الهند بالأمس القريب وبكت في اليونان بدموع التماسيح (إنْ صحّ أن التماسيح

تبكي بالدموع)! وتحمّس أبناؤها للدفاع عن الحرية وعن العدالة. وما يريدون حرية ولا عدالة، وإنما هي عداوتهم للإسلام الذي كان يتمثل في أنظارهم بدولة آل عثمان، وتطوّعوا للحرب مع اليونان.

[الذكريات ج٥: ح١٤٥ (١٩٨٥)]

-١٣-

نزل الهولنديون ضيوفاً يعتمدون على كرم الشرقي، يبسمون له لا ليُسرّوه بل ليسحروه، ويصافحونه لا ليؤكدوا الود بل ليختبروا قوة اليد، ويسألونه لا ليطمئنوا إلى حسن أخباره بل ليعرفوا المكنون من أسراره... وهذه مقدمة كتاب الاستعمار.

ثم جاؤوهم بالسلع الأوربية، وما كانوا يحتاجون إليها ولا تقوم حياتهم عليها، وأخذوا ثمنَها ثروات أرضهم وخيرات بلادهم، وهذه هي تتمة المقدمة.

فلما فرغوا منها فتحوا الكتاب وتلوا منه أول باب، وهو باب المعاهدات... وتتالت بعد ذلك المعاهدات كما تتالى الحلقات وتترابط، فيكون منها سلسلة طويلة هي قيد الحرية ورباط الاستعمار.

[في أندونيسيا: إسلام أندونيسيا (١٩٥٥)]

-١٤-

ماذا ينفعك أنك مصري مستقل، وأن الوادي وادي أبيك وجدّك وواديك، إذا كان الخواجة يستطيع أن يطردك من مأواك فلا تلقى إلا بإذنه سقفاً يُكنّك، وأن يعرّيك فلا تجد إلا بإذنه ثوباً يسترك، وأن يسيّرك فلا تصل إلا بإذنه إلى ترام يحملك؟

ما الاستقلال وأنت محتاج إليه في كل شيء؟ ما العزة وأنت تأكل الخبز الأسود وهو يأكل لباب البُرّ من أرض مصر؟ وأنت تسكن الكوخ المهدم وهو يملك الصرح الضخم على أرض مصر؟ وأنت تشرب الماء العَكِر وهو يشرب الرحيق المصفّى من خير مصر؟ وأنت تمشي حافياً وهو يختال بسيارته على ثرى مصر؟ وأنت تلبس الجلباب الخَلِق وهو يتخذ الثياب الرِّقاق من قطن مصر؟

أيصير الغريبُ صاحبَ البلد، وابنُ مصر يصير غريباً في مصر؟ هذا فظيع؛ هذا «عهد المماليك» يعود بثوب جديد!

[في سبيل الإصلاح: وكم في مصر من بنات أمبان (١٩٤٧)]

-١٥-

يا بني السين[١]! وسواء لديّ أبَلَغَ صوتي -أنا الطالب الضعيف- مسامعكم، أم تكسّرت أمواجه على صخرة القوة فتبددت، لأن المستقبل سيجمعها فيكون لها في نضال سوريا وجهادها دويّ وصدى.

إننا بشر أمثالكم، لنا قلوب تحسّ وعواطف تتألم ولسنا من صخر ولا حديد، فلا تَحْملونا على هذه الشِّرْعة التي يُحمَل عليها العبيد، فلا والله لن يُعْجِزنا أن نموت أشرافاً إذا نحن عجزنا أن نعيش أشرافاً. لقد قُضي علينا أن نهبط من عليائنا وأن نُسلَب حرّيتنا ونفقد استقلالنا، ولكنه لم يأتِ بعد، ولن يأتي أبداً، ذلك اليوم المشؤوم الذي نخسر فيه إيماننا وشرفنا.

إننا اليوم كما قال ملككم فرنسوا الأول من قبل: «قد خسرنا كل شيء إلا الشرف»، وإذن فلم نخسر شيئاً! ولن تقوى قوة في العالم على سلبنا الشرف والإيمان، فاصنعوا ما شئتم. املؤوا المرجة

(١) هو نهر فرنسا الذي يخترق باريس كما يخترق النيل القاهرة، أراد بالكناية شعب فرنسا (مجاهد).

دبّابات، واقتلوا منّا المئات، واكذبوا فانشروا ما شئتم بلاغات، فكل ما هو آتٍ آت.

قد رأينا الموت وقاسينا الفقر وشاهدنا الخراب، وأصبحت مدينتا بَلْقعاً وأهلها مفجوعين ونساؤها ثاكلات، فماذا نخاف بعد هذا؟ هل بعد الموت منزلة نحابيكم عليها؟ هل عندكم أشدّ من الرصاص؟ فقد فتحنا له صدورنا! هل عندكم أغلى من الأرواح؟ لقد أعددناها ثمناً للاستقلال!

ثمنُ المجدِ دمٌ جُدنـا به
فانظروا كيف بذلنا الثمنا

وبعد يا أيها الأقوياء: إن الهرّة إذا حُبست وضويقت انقلبَت لبؤة، والبركان إن سُدّت فوهته كان الانفجار، والشعب إذا استُذِلّ ثار، والنار ولا العار، وللشهداء عقبى الدار، وستردّون إلى الله الملك الجبار.

[البواكير: يا أمة الحرية (١٩٣١)]

-١٦-

... ثم صاح صيحته التي لا تزال ترنّ في أذني من وراء اثنتين وستين سنة[١] حتى كأني أسمعه يصيح بها الآن: غورو، لن تدخلها إلا على هذه الأجساد.

ولكن غورو دخلها! دخلها لمّا حسبنا أن الحرب تُكتسَب بالحماسة وبالخُطَب، ثم خرج قوم غورو لمّا عرفنا كيف تُكتسَب الحروب. غورو هذا وقف على قبر صلاح الدين الأيوبي الذي غلب أوربا كلها مرتين، مرة بسيف القتال ومرة بنُبل الفعال، وقف يفاخر عظامه ميتاً وقد كان قومه يرتجفون من بأسه حياً، ولا يفاخر الأموات إلا الجبناء، يقول: يا صلاح الدين، لقد عدنا.

حسب من غروره أنه ملك الشام إلى الأبد، كما يحسب هذا المغرور المأفون (بيغن) أنه مَلَكَ القدس إلى الأبد. فأين مَن يذهب فيبحث عن حفرة غورو، فيقف عليها ليردّ عليه بالحق كلمته التي قالها بالباطل، ليقول له: كلا، بل لقد طُردتم! ولْيستعدَّ

---

(١) كانت هذه الخطبة أوائل سنة ١٩٢٠.

من الآن من سيقوم غداً على حفرة بيغن ليقول له: أين غرورك وأين ادعاؤك؟ إن القدس قد رجعت على رغمك إلى أصحابها المسلمين.

نعم، إنها سترجع إليهم إن رجعوا هم إلى دينهم، ولقد بدت بوادر الرجوع إلى الدين.

[الذكريات ج١: ح١٥ (١٩٨٢)]

-١٧-

لقد كانت معركة ميسلون منعطفاً خطيراً في تاريخ بلادي، وما أكثرَ المنعطفات في قصة حياتي! ذلك لتعلموا أن حياة الإنسان لا تقاس بـ«طول» السنين بل بـ«عرض» الأحداث، فلقد بلغ عمري في التاريخ الذي أكتب عنه اثنتي عشرة سنة فقط، ولكني رأيت فيها حكم الأتراك، وحكم العرب ومن ورائهم الإنكليز، مُسْتَخْفين بأشخاصهم ظاهرين بأعمالهم، كالوسواس الخنّاس مع الناس. وسأشهد قريباً حكم الفرنسيين، وهم ظاهرون ظهوراً قوياً ولكن أثرهم -إن قيس بأثر أولئك- كان ضعيفاً.

أتعرفون القصة الرمزية عن الريح والشمس لمّا تراهنتا على أيهما يقدر أن ينزع عن الفلاح معطفه، فعصفت الريح فبرد فلبس فوق المعطف عباءة، وجاءت الشمس فوجّهت أشعتها إليه، فأحسّ بالحر وسال من جسده العرق فنزع المعطف؟ هذا هو مثال الإنكليز والفرنسيين كما رأيناهم في الشام، وهما -بعد ذلك- كحمارَي العبادي، قيل له: أيُّ حمارَيك أسوأ من صاحبه؟ قال: هذا. وأشار إليهما معاً!

[الذكريات ج١ : ح٨ (١٩٨٢)]

-١٨-

يا أيها القراء: إني ما جئت أصبّ في أعصابكم قوة ليست فيها، ولكن جئت أثير القوة التي نامت في أعصابكم. وما جئت لأجعلكم خيراً مما أنتم عليه، ولكن جئت لأُفهمكم أنكم خيرٌ مما أنتم عليه.

يا سادة: إن الأمم كالأفراد. ألا يكون الرجل منكم رائحاً من عمله خائر الجسم واني العزم، كل أمانيّه أن يصل إلى الدار فيُلقي بنفسه على أول مقعد يلقاه قبل أن يستنفد الجهد قواه، فيجد في الدار بشارة بأنه رُفِّع درجة أو نال جائزة، أو هبط عليه إرْث ضخم من قريب مَنسي، فيحسّ بأنه انتفض كما ينتفض العصفور بلّله القَطر، وانتعش كما ينتعش النبات أرواه الماء، ونشط كما ينشط الجمل أُطلق من عقال؟

ألا يكون أحدكم مَرْخِيّ الأعصاب خامل الجسد، قد خدّره النعاس حتى ما يقدر أن يفتح عينيه، فيعدو عليه عَاد أو يطرقه لص أو يحقره إنسان، فيشعل الغضب في دمه ناراً ويشد من أعصابه أوتاراً، فيثب يريد أن يقتحم الجدار أو يخوض النار؟

ألا يكون أحدكم تعبان كسلان، يجرّ قدميه من الونَى جراً يظن أنه سيسقط من كَلاله على الأرض، فيلحقه عدو فاجر أو يطارده وحشٌ كاسر، فإذا هو ينطلق انطلاق القذيفة من فم المدفع ويعدو عَدْوَ الغزال المروَّع؟

هذه -أيها الناس- القوة المُدَّخَرة في أعصاب الإنسان، يُظهرها الأمل ويبديها الغضب ويبعثها الخوف. وفي الأمم قوة كهذه القوة، وما الأمة إلا الأفراد؛ الأمة أنا وأنت وهم وهن، أفلا تحسّ -إنْ غضبت أو فرحت أو جزعت- أن نبضك يسرع وقلبك يخفق، ووجهك يَصْفَرّ أو يَحْمَرّ، وجسدك كله يتبدل ويتغير؟ فكذلك الأمم؛ تكون الأمة نائمة آمنة، قد غلب عليها الخمول وشملها الارتخاء، فما هي إلا أن يبعث الله لها القائد العبقري يصرخ فيها ينذرها خطراً، أو يحذّرها عدواً، أو يَعِدُها نصراً مؤزَّراً، حتى تَثِبَ كما يثب الجندي المستريح إلى سلاحه، فتعمل العجائب وتصنع المعجزات وتدع التاريخ حائراً من فعلها مشدوهاً.

[هُتاف المجد: إلى السلاح
يا عرب (١) (١٩٥١)]

-١٩-

لا تجزعوا من تلك المصائب المتتالية، فما هي إلا تدريب لنا. نحن كالبطل الرياضي الذي كان المصارعَ السابق، ثم تكاسل ونام حتى فترت حماسته ونَتْ قوّتُه. ماذا يصنع هذا البطل إذا جاءت المباراة الجديدة؟ ألا يكلَّف أنواعَ التمرينات الشاقّة ليعود إليه نشاطه ويرتدّ إليه جَلَده؟ كذلك يصنع الله بنا.

لقد كنا أمةَ نِزال وصِدام، وكنا أبطال المعارك وفرسان الميادين، ولقد فتحنا الشرق والغرب وملكنا ما بين الصين وفرنسا، ثم هجعنا طويلاً، وتوالت علينا أيام الخمول حتى لقد شككنا في أنفسنا. وها نحن أولاء نُدعَى مرة ثانية لقيادة العالم. إي والله، لقيادة العالم، ولا بدّ لذلك من تمرينات شاقة، وهذه هي التمرينات.

وقد يموت منا رجال، وتخرب لنا دور، ويصيبنا الأذى، ولكن ذلك كله يهون في جنب الغاية التي يريدها الله لنا.

[هُتاف المجد: حوادث مصر (١٩٥٦)]

-٢٠-

حدثني الأخ السيد عمر الحكيم (وقد كان في ألمانيا أواخرَ الحرب الماضية) قال: كانت تُغير على برلين خمسة آلاف طيارة، تضربها ضرباً يزلزل الأرض ويرجّ الجبال، حتى لكأن القيامة قد قامت وجهنم قد فتحت أبوابها. فإذا فرغت أحمالها وصبّت رزاياها وانصرفت خرج الناس من الملاجئ، ودارت السيارات الحكومية تقرع الأجراس ومعها صفائح كبيرة من الأخشاب ومسامير، فكل من هُدم جداره أو ضُرب بيته أخذ من هذه الصفائح، فجعل منها جداراً مكان الجدار الذي انهدّ وبيتاً بدل البيت الذي سقط. فلا ينتهي من البناء حتى تعود الغارة ويعود الناس بعدها إلى العمل، ويتكرر ذلك مرات في اليوم...

ونحن قد مرت بنا طيارة واحدة ضربت الشام بخمس قنابل، فجزع الناس وفزعوا، وهرب منهم من هرب فلم يعد يستطيع مقاماً. فما الفرق بيننا وبينهم؟ أنحن مخلوقون من الطين وهم مصبوبون صَبَّ الحديد؟ لا، ولكنها العادة والمِران ومكابدة الأهوال وممارسة الخطوب. وأنا أتمنى والله (وإن

كره بعض القراء) أن تتوالى علينا الغارات، وأن نذوق لذع الحرب ونكوى بنارها، ولو كان في ذلك خراب دور من دورنا وقتل ناس من أهلنا!

إن الألمان ليسو أصفى منا جوهراً ولا أطيب أصلاً ولا أقوى أعصاباً، ولكن حياة الدعة والخمول والقعود عن الحروب كادت تُفقد العرب أجمل سلائقهم وأحسن سجاياهم: الصبر والجلد واحتمال الشدائد ومقارعة العِدا.

فافرحوا إن شمرت الحرب عن ساقها، ورحِّبوا بالشدائد فإنها امتحان الرجال. إن عشر غارات على دمشق تنقّيها من كل خَوّار ضعيف، وتنفي عنها الجبناء المخانيث كما تنفي النارُ النحاسَ عن الذهب الخالص. إن عشرين مليون عربي كلهم رجال وكلهم أبطال، وكلهم مساعر حرب وأبطال جلاء، خير من هذه الملايين السبعين التي لا تصنع شيئاً.

فمرحباً بطيارات اليهود وأهلاً؛ إنها بداية الهوان لهم وبداية العز لنا!

[كلمات صغيرة: مرحباً بالغارات (١٩٤٩)]

-٢١-

... هذه قصة غارة واحدة رأيناها من طائرة واحدة مَرّت بسمائنا، فكيف كان الألمان خلال الحرب الثانية تهجم عليهم ألف طيارة أكبر وأضخم وأقوى على الإبادة وعلى التقتيل من هذه التي مَرّت بنا، فإذا انقضت الغارة خرجوا فأصلحوا ما فسد وسدّوا من الجدار ما انخرق، وصبروا وعادوا إلى العمل وإلى القتال؟ فهل الألمان أقوى منّا خلقاً وأقوى طبيعة وأقرب إلى الرجولة وإلى مزايا الأبطال؟ لا، ولكن طول الدعة والخمول، والقرون التي مرّت بنا في عصور انحطاطنا هي التي أنستنا بعض فضائلنا.

ولكن لا تخافوا ولا تيأسوا من روح الله، فإن الله موجود، يناديكم أن تعودوا إليه، فإذا عدتم إليه أعاد لكم النصر وأعاد لكم الظفر. إن العزة التي صبّها الإسلام في عروقنا لا تزال جارية فيها مع دمائنا.

يا أيها الناس: إن قطعة الذهب قد تسقط في الوحل فيصيبها الأذى ولكنها تبقى ذهباً، والصفيح ليس كالذهب، والشر ليس كالخير، والليل الأسود البهيم ليس كالضّحى المشرق المضيء. واليهودي

ليس كالمسلم ولو وُضِعَت في يده أموال الدنيا، ولو جمع في مخازنه أسلحة الدنيا، ولو وقفَت وراءه أقوى دولة في الدنيا.

[الذكريات ج٤: ح١١٦ (١٩٨٤)]

-٢٢-

قرأت في برقيات أمس أن فرنسا قد عادت إلى طيشها وبطشها في الجزائر، وإلى بطولتها في اقتحام البيوت وترويع النساء واعتقال الأبرياء وإيذاء المساكين... ففرحت وأيقنت بقرب الخلاص ودنوّ الفرج.

ذلك لأن في أعماق نفوسنا -معشر العرب- بطولة عجيبة لا تظهرها إلا المِحَن الشِّداد، وكلما حاق بها الخطر صفا جوهرها وظهر معدنها. وهذه الجزائر: لا تزال تناضل وتصاول كأنما لم تحكمها فرنسا، ولم تدأب أكثر من مئة سنة تسخّر ذكاءها وعلمها وقوتها وحمقها لتقتل فيها روح النضال وتمحو من نفوسها حب الاستقلال. وستظل تجاهد حتى تنعم بالجلاء كما نعمت به ديار الشام، الجلاء الذي دفعنا ثمنه من دمائنا التي أرقناها على أرض هذا الوطن، ومُهَجنا التي بذلناها، وأموالنا التي أنفقناها، ونلناه بتضحيتنا وبطولاتنا.

أبشروا، فستستقلّ الجزائر، ويتحرر المغرب كله، وتُستنقَذ فلسطين، وننجو من إنكلترا وأختها

كما نجونا من فرنسا. وإن كان الإنكليز أشرّ وأدهى، لأن الفرنسيين بحمقهم وطيشهم يأتون كالثور الهائج فتغلق دونه الباب أو تستعد له، وهؤلاء يجيئون كالحية الناعمة المزخرفة التي تدخل من تحت اللحاف فتلدغك وأنت نائم.

كلهم عزرائيل، ولكن أولئك يهجمون بالسيف وهم يسبّون ويشتمون، وهؤلاء يقتلون بالسم يُقدَّم في قطعة شكلاطة! والله المستعان عليهم جميعاً.

[كلمات صغيرة: ثورة الإيمان (١٩٥٠)]

-٢٣-

انظروا ماذا صنعنا في هذه الحرب واعجبوا منّا[١]: إذ فتحت لنا إلى آمالنا باباً واسعاً فلم ندخله، ووضعت في أيدينا سلاحاً ماضياً فلم نستعمله!

عجزنا عن أن نكون أقوى من عدونا، فأضعفته هذه الحرب لنقوى بضعفه، وشغلته عنّا لنغتنم الفرصة فنستردّ منه ما سلبه منا، فأدركَتنا رقة الشعور، فرحمناه وأشفقنا عليه أن نزعجه بمطالبنا في بلواه، وآثرنا الذوق واللطف على واجب الوطنية والشرف، فلم نفتح أفواهنا لنقول له: "أعطِنا الذي سرقته منا"، بل أعنّاه على عدوه وعلى أنفسنا، وأيدناه بألسنتنا وأموالنا وأيدينا!

وزعم لنا أنه ما حارب إلا لينصر الديمقراطية، فقلنا: "صحيح، فلتعش الديمقراطية"! وقال لنا إنه يبذل دمه ليدافع عن الضعاف المظلومين ويطهّر الأرض من النازيين الباغين، فقلنا: "بارك الله فيك،

(١) الحرب العالمية الثانية، وقد نُشرت المقالة بعد نهايتها بسنتين (مجاهد).

هذه شيمة السادة الأكرمين"... ولم تكن فينا أمة عاقلة إلا الهند، فلم تجامل هذه المجاملة السخيفة التي جاملناها، ولم تقترف هذه الجريمة التي اقترفناها، بل قامت تنادي بطلب الاستقلال على حين كان أدباؤنا يمجّدون الديمقراطية في الصحف، ومشايخنا يدعون لها على المنابر بالنصر، فكانت عقوبتنا عاجلة:

لم تمرّ ثلاث سنوات على استجابة الدعاء وانتصار الأعداء حتى فعل بنا أهل باريس التي بكينا عليها يوم نكبتها (جدّدَ الله نكبتها) ولندن التي مجَّدْنا ديمقراطيتها ما لم يفعله هتلر باليهود ولا الذئبُ بقطيع الغنم، فضربوا دمشق أقدمَ مدن الأرض بالقنابل، وذبحوا عشرات الألوف من أهل المغرب، وأعانوا الهولنديين على الأندونيسيين ليملكوا أرضهم ويسلبوهم بلادهم ويقتلوا أبناءهم، ورموا فلسطين بشُذّاذ الآفاق ونُفايات الأمم، أهل الذِلّة والمسكنة، اليهود! وتنكّروا لمصر من بعد ما لجؤوا إليها فآوتهم، وسألوها المال فأعطتهم، وخطبوا منها -على ظلمهم لها- الوُدّ فوادَّتْهم، واستنصروها -وهم أعداؤها- على قوم لم يعادوها فنصرَتهم، فكان جزاؤها منهم -بعدما أكلوا خبزها

وأخذوا مالها وسكنوا في مسكنها- جزاءَ الذي أطعم الحية فلدغته وآوى الضبع فأكلته![1]

فهل اعتبرنا؟ وهل عرفنا أنّ مَن لا يثب على الفرصة تُفلت منه، ومن لا يضرب الحديد حامياً يبرد ويشتد فيعجز عنه؟ وهل اعتزمنا «الوثوب» في فلسطين، وفي مصر، وفي المغرب... أم لا نزال نؤجّل ونسوّف حتى يأتي يوم لا ينفع فيه الوثوب ولا يجدي فيه العمل؟

[ثِبْ وثباً (مقالة قديمة لم تُنشَر في الكتب) (١٩٤٧)]

---

(١) لمّا تسعّرت الحرب العالمية الثانية هادَنَ الإنكليز والفرنسيون والهولنديون الشعوبَ التي استعمروها وخدعوها وسخّرَوها لمنفعتهم، فصار أبناؤها جنوداً في كتائبهم، وصارت حاصلاتها غذاء لجنودهم وأراضيها طرقاً لجيوشهم وقواعدَ لطيّاراتهم.
واستعانوا بذلك كله على أعدائهم من الألمان والطليان، فلما تحقق لهم النصر عادوا أشدَّ على شعوب المستعمرات مما كانوا وأغشم وأظلم. ومن قرأ خبر ما صنعه الفرنسيون في الجزائر بعد الحرب والهولنديون في أندونيسيا فلا آمن عليه -من هول ما يقرأ- المَشيب من قبل الأوان (مجاهد).

-٢٤-

نحن اليوم في معركة مع الاستعمار، قد اندلعت نارُها وطار في كل أرض من أرض الإسلام شَرارُها. فهل رأيت جيشاً في معركة يدَعُ مدافعه فلا يطلقها، وينسى دباباته فلا يسيّرها، ويلقي بنادقه فلا يحملها؟

هذا ما نفعله نحن حين نهمل أقلامنا فلا نسخّرها في هذا النضال. وإنّ مِن أمضى أسلحتنا وأنفذها وأبقاها على الزمان وأثبتها للغِيَر لَهذه الأقلام، فما لِهذه الأقلام نائمة لا تفيق، جامدة لا تتحرك؟ وما لبعضها لا يزال يلهو ويلعب، كأنه مدفع العيد يتفجر بالبارود الكاذب وسط المعمعة المدلهمّة التي جُنّ فيها الموت؟!

إنها معركة الاستعمار: استعمار البلاد بالجيوش، والأسواق بالشركات، والرؤوس بالمذاهب، والقلوب بالشهوات، فجنود العدو تخطر على أرضنا[1]، وشركاته تتحكم في أسواقنا، ومذاهبه الخبيثة تملأ رؤوسنا، وتقليده في إباحيته وشهوته وتكشّفه في

(١) هذا ما كان.

نسائه وفي أدبه يفسد قلوبنا. فأين تلك الأقلام تنبّه القوم النِّيام، وتطهّر الرؤوس والقلوب، وتحمل نور الحق لتبدد به ظلمة الباطل؟!

أين تلك الأقلام تعرّف هذا الشعب بنفسه، وتتلو عليه أمجاد أمسه، وتذكّره أنه لم يُخلَق ليَذِلّ ويخنع، وإنما خُلق ليعز ويَحكم، وأن الله ما برأه من طينة العبيد بل سوّاه من جِذْم[1] الصِّيد الأماجيد، وأنه أثبت من هؤلاء المستعمرين أصلاً في الأرض وأعلى فرعاً في السماء، وأكرم نفساً وأشرف عنصراً وأنقى جوهراً، وأنها إذا أفقرت الأيامُ الغنيَّ وأذلت العزيزَ فإن الفلك دَوّار، والدهر دولاب، فلا يغترّ الفقير بالغِنى الحادث ولا يأسَ الغنيّ على اليسار الذاهب، فإنّ كل شيء يعود إلى أصله، وإن كل حال إلى زوال.

[في سبيل الإصلاح: أين الأقلام؟ (١٩٤٦)]

(١) الجِذم هو الأصل والأهل والعشيرة، وفي الحديث: «لم يكن رجلٌ من قريش إلا له جِذم بمكة» (مجاهد).

-٢٥-

لقد حارب الفرنسيون لمّا وُطئت بلادهم، وإنْ كانوا في الحرب نعاماً تُحسن الفَرّ لا أسوداً تجيد الكَرّ. وحارب الإنكليز، وحارب الأميركيون، وحاربت قبائل البوير، وحارب أهل الحبشة، وحارب هنود أميركا يوم دخلوها عليهم... وحاربت كل أمة على ظهر الأرض. وكانت هذه الحرب المقدَّسة خُلُقاً في طبع كل أَبِيٍّ شريف، فلا يكون مَن يفقده أبيّاً ولا شريفاً، لا يكون إلا كلباً. بل إن الكلب يحارب دون وِجاره، وكل حيوان حي يدافع عن ذِماره، حتى الخنزير البري!

فَهل يريد أنصار المفاوضات والمحادثات أن نكون أقلَّ من الخنازير؟ كلا، وأنفُ الكاره في الرغام. ولكنْ أكرمَ من كل كريم، وأعزَّ من كل عزيز، وأسمى من كل بشر أظلّته السماء وحملته الغبراء. وإلا فما نحن لأولئك الأجداد، ولا نحن لرمال الجزيرة، ولا نحن لمن حملوا نشيد «الله أكبر» ومشوا حتى صكّوا به سمع الزمان، وراعوا به جنّ الفلا، وملؤوا به كل سهل وجبل حتى دانت لهم الأرض ومن عليها، ولا نحن لمحمد صلى الله عليه وسلم.

كلا، نحن سلائل الفاتحين، في عروقنا دماؤهم، وفي صدورنا قلوبهم، ولنا عزّتهم، ولئن فقدنا السلاح فما فقدنا العقل الذي يصنعه، ولا اليد التي تَشْحَذُه[1]، على أنه إذا أعوزنا السلاح أخذناه من يدِ عدوّنا وجالدناهم به. وكذلك فعلنا.

لن نهاب بعد اليوم غريباً، ولن نثق به أبداً.

[هُتاف المجد: تحية البطلين (١٩٤٧)]

(١) تشحذه أي تُسِنّه وتُحدّه، لا تشحده!

-٢٦-

إلى السلاح يا عرب. إلى السلاح، فإن كل استقلال لا يحميه السلاح قلعة مَبنيّة على تل من الملح في مجرى السيل. إلى السلاح، فإن كل حق لا يؤيده فمُ المدفع حق معرَّضٌ للاغتصاب. إلى السلاح لتحموا به أوطانكم وإيمانكم، وتدافعوا به عن أرضكم وعن عِرضْكم، ولتذودوا به عن أجداث أجدادكم وآثار أمجادكم.

إلى السلاح، ابذلوا في سبيله الغالي والرخيص. إلى السلاح، بيعوا الصحن والكرسي واشتروا السلاح، امنعوا عن أفواهكم وابذلوا للسلاح، فإنه إن كان معكم السلاح استرجعتم كل ما بذلتم، وإن لم يكن معكم سلاح لم ينفعكم كل ما ادّخرتموه.

إلى السلاح، اشتروه من الشرق ومن الغرب، واطلبوه من الإنس ومن الجن! سلاح الحديد في أيديكم، وسلاح الإيمان في قلوبكم، وسلاح الأخلاق والعلم والمال. والله معكم، إن تنصروا الله بأموالكم وأنفسكم ينصركم ويثبّت أقدامكم.

[هُتاف المجد: إلى السلاح يا عرب (٢) (١٩٥٤)]

-٢٧-

... وشيء أخير أقوله لكم، نصيحة من أخ لكم: أنتم نذرتم أنفسكم للجهاد، وقد تتعرضون لمخاطر لا بدّ للجندي منها، فإذا انسدَّت يوماً في وجوهكم السُّبُل، إذا رأيتم أنفسكم في ضَنْك، إذا لم تجدوا ملجأ أو مخرجاً على الأرض، فاذكروا أن هناك باباً لا يُسَدّ أبداً، هو باب الله، هو باب السماء. فمُدّوا أيديكم وقولوا «يا الله» قبل أن تمضوا.

أيها الإخوة، قبل أن تمضوا إلى المعركة ليَقُل العاصي: يا رب، إني أتيت إليك، إني أترك أهلي وأمضي مجاهداً في سبيلك ولإعلاء كلمتك، فاكتبها لي شهادة، ولا تحرمني الحياة الدنيا بالموت والحياة الأخرى بخسران الجنة.

توجّهوا إلى الله، واجعلوا شعاركم الذي تهتفون به أمام كل قلعة وفي كل واد وعلى كل رابية هُتافَ آبائكم الذي كان يأتيهم به النصر، ذلك النشيد الذي لم تسمع أذن الزمان أعظم منه روعة ولا أعلى منه رفعة، نشيد «الله أكبر». ومهما كبر العدو فاعلموا أن الله أكبر منه، وثقوا أنكم إن كنتم جنداً لله فإن جند الله

منصور دائماً، وإذا كنتم مع الله بقلوبكم فلن يغلبكم أحد، لا إسرائيل ولا من هم وراء إسرائيل: ﴿وإنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الغالِبون﴾.

[نور وهداية: الحرب والإيمان (١٩٦٩)]

-٢٨-

لا يقُل قائل من الناس: إننا في معركة مع اليهود وأنت تريد منّا أن نكتفي بالدعاء.

أنا لا أريد أن تَدْعوا دعاء الخاملين العاطلين ولا يريد ذلك الإسلام، بل أريد أن نمتثل أمر الله، أن نُعِدّ ما استطعنا من القوّة وأن نبذل ما نقدر عليه من جهدنا، ثم نسأل ربنا النصر على عدونا، لأن النصر ليس مقترناً حتماً بكثرة العدد ولا بضخامة العُدَد، والمسلمون الأوّلون كانوا دائماً أقل من عدوّهم عدداً وعُدداً. لقد نصر الله المسلمين ببدر وهم أذلّة، ويوم حنين إذ أعجبتهم كثرتهم فلم تُغْنِ عنهم شيئاً: ﴿وكَمْ مِن فئةٍ قليلةٍ غَلبَتْ فِئةً كثيرةً بإذنِ الله﴾.

أمرَنا الله بأن نُعِدّ ما استطعنا من القوة لكن هل نُعِدّها للنصر؟ لا، بل لنُرهِب بها عدو الله وعدونا، وما النصر إلا من عند الله. أنزل الله ملائكته في بدر، هل أنزلهم للنصر؟ لا، وإنما أنزلهم بُشرى: ﴿وَما جَعلَهُ اللهُ إلا بُشرى لكم ولِتطمئنَّ قلوبُكم به﴾، ﴿وما النصرُ إلا من عندِ الله﴾.

[الذكريات ج٣: ح٨٤ (١٩٨٣)]

-٢٩-

لمّا كان هتافنا «أمجاد يا عرب أمجاد» لم تنصرنا أمجادُ العرب، لأن مجد العرب الحق وُلد يوم ولد محمد ﷺ. لولا محمد لم يكن للعرب إلا المعلقات وقصر غمدان، ومعارك بين القبائل لم تَبْنِ مجداً ولا خلّدت ذكراً، ومآثر لم تَدْرِ بها روما ولا القسطنطينية ولا مدائن كسرى، فلما جاءهم محمد ﷺ بالإسلام جعلهم به سادة الأرض وأساتذتها، وجعل منهم مُثُلَ البشرية العليا في الفضائل والمفاخر.

كنا كلما عَدَتْ إسرائيل علينا فزعنا إلى «مجلس الأمن»، كما يصنع التلميذ الضعيف في المدرسة، يضربه الأقوياء فيذهب إلى الأستاذ يقول: "أستاذ، فلان ضربني"، فيقول الأستاذ للضارب: "عيب يا ولد، لا تضرب رفيقك"، ويغمز بعينه يقول له: لا تخف، أنا معك ولن ينالك أذى!

كأن مجلس الأمن إنما أُنشئ ليكفل الأمن لإسرائيل وحدها!

[هُتاف المجد: قصتنا مع اليهود (١٩٨٩)]

-٣٠-

كان من مدن جنوبيّ الشام بلاد لم يستطع أن يعيش فيها قبل ضياع فلسطين يهودي واحد، كالخليل ونابلس، فصاروا الآن يجولون فيها ويصولون ويعيثون فساداً في الأرض لأنهم شعب الفساد والإفساد. وما بقوّتهم سطوا، ولكن بضعفنا وتفرُّقنا وأننا أبعدنا الإسلام عن معركتنا في فلسطين، فلم نجعلها جهاداً إسلامياً[١] بل حرباً وطنية ومعركة قومية، فكأن الله يقول لنا الآن: "لِتَنصرْكم قوميّتُكم وعروبتكم ما دمتم أعرضتم عن نصرة ربكم فلم تنصروه لينصرَكم". فهل اعتبرتم؟ لقد خسرتم فما أغنَت عنكم قوميتكم ولا عروبتكم، فهل تعودون الآن إلى ربكم، تستغفرونه وتتوبون إليه وتجاهدون في سبيله ولإعلاء كلمته، وتستمطرون النصر منه باتّباع دينه والتمسّك بشريعته؟ أم أنتم محتاجون أن تستمر التجرِبة حتى تضيّعوا آخر ما بقي لكم؟

---

(١) حتى جاءت هذه الانتفاضة سنة ١٤٠٨، خرجَت من المساجد تلبس ثوب الإيمان، فأعطاها الله النصر وأدهش منها أهل الأرض.

إنه والله لعجب يعجب منه العجب: رجل يقاتل عدوّه بالبندقية القديمة الصدئة التي ورثها عن جدّه، وأمامَه الرشّاش فلا يمد إليه يده وبين يديه القنبلة فلا يلتفت إليها ولا يحارب بها! أليست دعوة القومية المخالفة للإسلام هي البندقية القديمة الصدئة؟ أليست هي العصبية الجاهلية التي نهانا الإسلام عنها؟

لقد جرَّبْنا، فهل بعد التجربة من برهان؟ جرّبنا رفع راية الإسلام بيد صلاح الدين فكانت حطين، وكان بعدها استرداد فلسطين ثم كان طرد الواغلين الغاصبين، فخبّروني يا من رفعتم راية القومية ونكستم راية الإسلام، وقلتم «عرب» ولم تقولوا « مسلمون»، تنادون كل يوم من إذاعتكم صباح مساء: "أيها الإخوة في العروبة"، ونسيتم الأخوّة التي قررها رب العالمين وهي أخوّة الإيمان، خبروني: ماذا أجْدَت عليكم؟

[الذكريات ج٨: ح٢٤١ (١٩٨٧)]

-٣١-

لقد دُعي المسلمون الأوّلون إلى الجهاد، إلى التضحية، إلى بذل الروح مئة مرة، فما تقاعسوا ولا تردّدوا.

لقد لبَّوا دوماً وما أَبَوا يوماً، ولا يزالون حاضرين ليلبّوا إن دُعوا من جديد. على أن يدعوهم الداعي بلسانهم لا بلسان غريب عنهم لا يفهمونه ولا يعرفونه؛ يدعوهم باسم الدين جهاداً في سبيل الله وإعلاءً لكلمة الله، لا باسم الوطنية ولا القومية ولا التقدمية. إن الله يعطي الشهيد الذي يموت في سبيله جنة عرضها السماوات والأرض، يعطيه حياة مدتها مليار مليار قرن، بل إن مدتها لا تحيط بها الأرقام لأنها لا نهاية لها، حياة ما فيها إلا السعادة وكل لذيذ مشتهى، بدل حياة على الأرض مهما طالت فإن نهايتها الموت وفيها ما فيها من المتاعب والآلام.

هذا جزاء من يقاتل في سبيل الله. فماذا تعطي القومية وتعطي التقدمية وتعطي الوطنية من يموت في سبيلها؟ هل عندها ما تعطيه؟ بل قولوا ما هي؟ هل هي شيء له وجود أم هي أسماء سمّيناها نحن (لا

آباؤنا) ما أنزل الله بها من سلطان؟ فما لنا ندع شرعة الإسلام إلى نظام أساسه أوهام، ونتائجه أحلام، ولن يكون له (كما لم يكن لأمثاله) دوام؟

[الذكريات ج١ : ح٤ (١٩٨١)]

-٣٢-

ما بيننا وبين النصر، ما بيننا وبين أن ننقذ فلسطين إلا أن نعود إلى ربنا، وأن نعلم أنها إن كانت تُمِدّ إسرائيلَ وتُعينها وتؤيّدها قوى كبيرةٌ فإن الله أكبر. لقد طالما قلت ولم يسمع مني أحد. قلت: ما الذي ينقصنا لننتصر على اليهود؟ العدد؟ نحن ألف مليون، فكم عدد اليهود؟ العلم؟ عندنا من العلماء أكثر مما عند اليهود. المال؟ معنا، مع ألف مليون من المسلمين، أكثر مما مع اليهود؟ فما الذي ينقصنا؟

ينقصنا الإيمان.

لقد قلت في الإذاعة (وأنا أقدم محدّث فيها، أذيع بلا انقطاع من أكثر من خمسين سنة) قلت: إن السلاح لا يُغني عن الإيمان مهما كثر السلاح. فضحكوا مني وسخروا بي، وقالوا: ما يُدريك وأنت شيخ أديب ما العسكرية وما فنون القتال؟ فلما نشر مونتغمري مذكراته وتكلم عن القوة المعنوية وقال مثل الذي قلت سكتوا وما قالوا شيئاً. أيسخرون من مونتغمري ويقولون له: أنت لا تدري ما فنون القتال؟

[الذكريات ج٧: ح١٩٤ (١٩٨٦)]

-٣٣-

إذا أردتم -وقد صحوتم هذه الصحوة المباركة- أن يعود لكم النصر الذي كان لأجدادكم فاسلكوا طريقه، فإن مَن لا يسلك الطريق لا يبلغ الغاية، وادخلوه من بابه، فإن من أخطأ الباب لم يصل إلى المحراب.

ابدؤوا جهادكم في فلسطين (وفي غير فلسطين) بالصلاة. ألا ترون موقفنا مع اليهود، وهم أذل الأمم وهم أقل الأمم؟ لا تقولوا إنها تمدّهم أميركا، فإن أميركا لمّا وقف أمامها الفيتناميون يقاتلونها بإيمان (وإن كانوا يؤمنون بالجبت والطاغوت، لا يؤمنون بالله واليوم الآخر) لم تقدر أن تخضعهم بسلاحها.

يا أيها الناس: إن الذي يقاتل عن إيمان لا يمكن أن يُغلَب، فكيف إن كان يؤمن بالله وباليوم الآخر؟ فكيف إن كان الناس يخافون الموت وكان هو يطلب الموت لأنه يرى في الموت الحياةَ الدائمة الباقية؟

فاستبشروا -يا أيها المسلمون- بالنصر ما بقيت هذه الصفوف قائمة، يقودها الإمام ويسودها النظام، قانونها الإسلام، وشعارها دائماً: إلى الأمام.

إن هذه الصفوف إذا عرفت كيف «تقوم» هنا حقاً، وربط أصحابها قلوبَهم بالله حقاً، وجاهدوا في سبيله حقاً، عرفت كيف «تسير» مرة ثانية إلى مرابع النصر ومراتع الفخر، وعرفت كيف «تقعد» مرة ثانية في الصدر، فيكون لها النهي والأمر ويكون لها عز الدهر.

[نور وهداية: حيّ على الصلاة (١٩٦٤)]

-٣٤-

خطب الشيخ رضا[1] الجندَ وذكّرهم الله، ودعاهم ليصححوا نياتهم في الجهاد. وتلك سُنّة المسلمين قبل كل معركة ليخوضها الجندي على بصيرة، فإذا مات لم يخسر الدنيا بالموت حتى يكون قد ربح الجنة بالشهادة.

وهذا ما يجب أن يعرفه كل جندي مسلم؛ ينال إن ظفر الثواب، ويحظى إذا قُتل بالشهادة. وليس الشهيد الذي يقاتل لمجرد استرداد البلد السليب ولا الذي يموت خدمة للعَلَم ولا تضحية للوطن ولا دفاعاً عن مجد العروبة، بل الذي يقاتل لإعلاء كلمة الله ويموت في سبيل الله. ولو كان هذا قولي أنا لما ألزم أحد منكم باتّباعه، ولكنه قول من يُلْزَمُ باتّباعه كل واحد منكم: رسول الله ﷺ.

[الذكريات ج١ : ح١٨ (١٩٨٢)]

---

(١) الشيخ رضا الزعيم، قال عنه في «الذكريات» إنه "كان صادقاً مع الله، صدّاعاً بالحق، جريئاً جرأة نادرة المثيل". وهو والد حسني الزعيم، صاحب الانقلاب الأول في الشام (مجاهد).

-٣٥-

كان الفرق بين قوة العرب في الجاهلية (وهم قبائل متفرقات جاهلات) وبين إمبراطورية قيصر ومملكة كسرى أكبرَ من الفرق بين المسلمين اليوم وهاتيك الدول، ومع ذلك فقد غلبناهما وأزحنا عن صدر الدنيا كابوسَهما، ونقّينا الأرض من جَورهما، ومحوناهما من مصوَّر (خريطة) الدنيا.

لقد كانت هذه المعجزة لأن العرب وجدوا كتاباً عجباً، فيه منهاج للحياة لا يتبعه أحد إلا ظفر في الحرب والسلم وجمع الخير من أطرافه. فإذا كان في القرّاء من يستطيع أن يجد نسخة من هذا الكتاب فليدلّنا عليه لنقرأه ونفهمه ونعمل به، فنغسل من أوضار الاستعمار أرضَنا، ونسترجع مجد آبائنا، ونحتل مكان الصدارة مرة أخرى في الدنيا.

ليس بيننا وبين ذلك كله إلا أن نعمل بهذا الكتاب العجيب، أمّا اسم هذا الكتاب فهو «القرآن».

[من وحي الإسراء (مقالة قديمة
لم تُنشَر في الكتب) (١٩٥٧)]

-٣٦-

يقولون إنه لا طاقة لنا بأميركا، كما قال قومٌ من قبل: ﴿لا طاقَةَ لَنا اليَوْمَ بِجَالوتَ وجُنُودِهِ﴾، فكانت النتيجة أن قتل داوود جالوت.

ما قتله بقوّته بل بمعجزة من الله، فالذي قتله هو الله. ولما كانت حرب رمضان، وهي التي اقتربنا فيها من الله إصبعاً فاقترب منا النصر ميلاً، قال أحد الرؤساء: "كنت أحارب اليهود، أما وقد دخلت أميركا فلا أستطيع محاربة أميركا".

وقلت يومئذ في إذاعة مكة ومن هذا الرائي: إن هذا الكلام صحيح بجميع المقاييس البشرية، فلا قوتنا مثل قوة أميركا ولا جيشنا مثل جيوشها ولا خبرتنا تعدل خبرتها، ولكن وراء هذه المقاييس مقاييس أخرى، مقاييس أعلى وأصح، ولو أن المسلمين الأوّلين أخذوا بالمقاييس البشرية لما استطاعوا أن يفتحوا بلدة واحدة من البلاد التي شملها الفتح الإسلامي وحمل إليها النور والعلم والهدى.

[نصر من الله وفتح قريب (مقالة غير منشورة في الكتب) (١٩٩٠)]

-٣٧-

إننا نسمع في كل مكان ونقرأ في كل صحيفة أن البلاد على خطر، وأن الحرب قريبة منّا، وأن الفرنسيين والإنكليز وإسرائيل، كلهم يتربصون بنا ويبيّتون الشر لنا، ثم أنظرُ حولي فلا أرى أمة تستعد للحرب، ولا أجد إلا الغفلة واللهو والانقسام والاختلاف... فهل في الدنيا جماعة تكون في معركة مع عدو غريب عنها، ثم تجعل للخلافات الصغيرة فيما بينها سبيلاً إلى إضعافها؟ فما معنى اختلاف الأحزاب والهيئات والجماعات، والعدو المشترك متربص بها جميعاً؟

وهل في الدنيا أسرة تحيط بها النار المندلعة ويهدّدها اللص المسلح، ثم تغني أو ترقص وتلعب؟ فما معنى هذه الحفلات التي لا آخر لها، حفلات الرقص واللهو، حتى لا أظن أنه بقي في الأرض شعب لم يَسُق إلينا راقصاته وقَيْناته، وكلها تأخذ من أموالنا ومن رجولة شبابنا، وتشغلهم عن الاستعداد للحرب بالنظر في الصدور والسيقان، باسم الفن طبعاً وللفن وحده، ومن قال غير ذلك فهو رجعي جامد شهواني لا يُسمَع كلامه! والأموال الطائلة تُنفَق

على السّرَف، على إيفاد المدلَّلين من كبار الموظفين ليسيحوا في الأرض ويتفرجوا ويستمتعوا، فأين الاستعداد للحرب؟

وهل حسبتم النصر يأتي بالرشاشات والمدافع فقط؟ إن النصر لا يأتي إلا بالإيمان، بالقوة المعنوية. إن النصر من عند الله، فهل يُطلَب النصر من الله بالمجاهرة بمعصيته، واستباحة محارمه، والخروج على حدود دينه؟

وعليكم قبل ذلك كله بالرجوع إلى الله، وإيقاظ الإيمان في النفوس، حتى يكون القتال في سبيل الله، ولإعلاء كلمة الله، وبذلك... بذلك وحده يكون النصر إن شاء الله.

[كلمات صغيرة: بالعربي الفصيح (١٩٤٨)]

-٣٨-

نحن لا نبغي عدواناً ولا نطلب باطلاً. إننا نطلب الحق، وسنحارب إن لم نُعْطَ الحق. نحارب لا بغياً ولا ظلماً، فلا ينصرُ الله ظالماً، ولكنْ دفاعاً عن أنفسنا وعن الحق وعن كرامة الإنسان. نحارب بشيوخ لهم حماسة الشباب، وشباب لهم حكمة الشيوخ، ونساء لهن رجولة الرجال، وصغار لهم عزائم الكبار... ولئن هلك منا فوج لنأتينّ بأفواج، ولئن صبر العدوّ يوماً لَنرْمينّه بأيام، والمستقبل لنا.

إننا خمسمئة مليون[١]. ولو أن خمسمئة مليون هرّة هجمت على إنكلترا دفعة واحدة لهرب منها أهل إنكلترا، فكيف تطمع إنكلترا أن تُرغم آناف خمسمئة مليون رجل، يرون الجهاد فرضاً في دينهم كفرض الصلاة، ويرون الموت في الحرب أمنيّة من أجمل الأماني؟

فيا أيها العرب في كل أرض، يا أيها المسلمون تحت كل نجم، يا أيها الرجال ويا أيتها النساء: لقد

(١) (كان هذا عدد المسلمين يوم نُشرت المقالة، وهم اليوم ألف وستمئة مليون (مجاهد).

أزفت ساعة المعركة الفاصلة، فليحمل كل رجل منكم وكل امرأة فيكم نصيبَه منها، واعلموا أن الظفر لكم.

يا أيها المجاهدون في عُمان والجزائر والقرى الأمامية في فلسطين، ويا أيها العاملون على تحطيم آخر صنم للاستعمار في ديار العرب: اصبروا وصابروا ورابطوا، واتقوا الله لعلكم تفلحون.

[هُتاف المجد: خطبة الحرب (١٩٥٧)]

-٣٩-

أريد أن تعرفوا أننا في حرب، حرب ظاهرة وحرب خفيّة: حرب مع إسرائيل ومِن ورائها أميركا في فلسطين، وحرب مع إنكلترا ومِن ورائها فرنسا في القناة، ومع فرنسا ومن ورائها حلف الأطلنطي في الجزائر. وهذه هي الحرب الظاهرة، أما الحرب الخفيّة فهي حرب الاقتصاديات وحرب المبادئ الهدّامة.

إن تلك براكين ساكنة توشك أن تنفجر، وهذا بركان متفجّر يرمي بالنار والحمم على إخوانكم. إن المال الذي يأخذه منا الغربيون ثمن سيارات البذخ وأحمر الشفاه وعطر الإغراء وهاتيك السموم التي اسمها الشمبانيا والويسكي... كل ذلك يتحول ثمنَ رصاص يستقر في صدور هؤلاء الإخوان وثمن قنابل تدمر دورهم وقراهم.

فهل سمعتم بأمة تعين عدوَّها على نفسها؟ هل سمعتم بأمة تعيش في الحرب مثل عيشها في السلم؟ هل سمعتم بأمة تنام على دَوِيِّ المدافع؟ هل سمعتم بأمة تغني على أنين المُحتضَرين من أبنائها

وترقص على قبور شهدائها؟ هل سمعتم بأمة ترسل أولادها -وقلوبهم كالصفحات البيض- إلى مدارس عدوها، إلى الفرير والفرنسِسْكان واللاييك، لينقش المعلمون فيها على هذه القلوب لعنَ أمتهم والكفرَ بها وبأمجادها؟

إنها أيام حرب، فلنعش عَيش الحرب. ولنتقاسم بالله على أن نقاطع مدارس الأعداء وبضائع الأعداء، وليعط كلٌّ منا ما يقدر عليه، فإن ما تدفعه قد يحرمك هذا الشهر من الكماليات وقد يُدخل عليك بعض الضيق، ولكنه يحيي في الجزائر نفوساً، وينقذ من الاستعمار بلداً عربياً، ويدفع الأذى عنكم أنتم، فإن فرنسا (وأنتم أعرف بها)، إن فرنسا إنْ ظفرت في الجزائر -لا سمح الله ولا قدّر- لتعودنّ على مراكش وتونس، ولترجعنّ إليكم إذا قويت بضعفكم وتخاذلكم. والثواب -بعدُ- مضمون من الله، وإن الرزّاق هو الله، وما تدفعونه وتنوون به وجه الله فإن الله يخلفه.

[هُتاف المجد: في افتتاح
أسبوع الجزائر (١٩٥٧)]

-٤٠-

ما أدري والله، هل فقدت أنا عقلي أم الناس جميعاً قد فقدوا عقولهم؟ وإلا فخبّروني: كيف أرى الشيء أسود مظلماً ويرونه هم أبيض مثل الثلج؟ وكيف أتألم وأتحرق كلما رأيت الخطر الداهم والعدو المتربص والغفلة واللهو واللعب، ويضحكون ويصفقون، كأن هذا هو المعقول وأن هذا هو الواجب؟

الإنكليز والفرنسيون يحومون ببوارجهم وقواتهم من حول القناة، يُرعدون ويُبرقون، ينتظرون غفلة منا ليُطبقوا علينا، والفرنسيون -ومعهم قوى حلف الأطلنطي- يسوقون عُدَد الموت إلى إخواننا المجاهدين في الجزائر، يطلعون بها عليهم من البحر ويأتون بها من البر وينزلون بها من السماء؛ يقتلون الأبرياء ويذبحون النساء ويدمرون القرى ويَعْدون على الأعراض، واليهود... حتى اليهود الأذلّة قد تشجعوا وغدوا يَبدؤوننا القتال، ويهجمون علينا ويقتلون منا، ونحن... ماذا نصنع نحن؟ هل نبذنا الخلاف الحزبي بيننا وأجّلناه حتى تنكشف هذه الغمة؟ وهل وضعنا لأنفسنا خطة التقشف والتوفير

وترك السرف والتبذير، لننفق هذا الوفر في الاستعداد للحرب؟ هل وضعت الحكومة موازنتها على هذا الأساس؟ هل تركت الإنفاق في الكماليات، والإيفادات والرحلات، والحفلات والمؤتمرات، وإقامة النُّصُب وإضاعة الأموال فيما لا ضرورة له ولا جدوى منه، ولا يدفع عدواً ولا يستجلب نصراً؟

والشعب، هل صدّق الشعب بأننا على أبواب حرب؟ هل نقص استيراد السيارات الفخمة والعطور والثُرَيّات والخمور؟ إننا في مطلع السنة المدرسية، فهل عزم والدٌ على إخراج بنته من الفرنِسكان، أو ابنه من الفرير أو اللاييك؟ هل عرف الآن أننا لا نستطيع أن نحارب فرنسا ونحن نسلم أبناءنا وبناتنا إلى المعلمين الفرنسيين والمعلمات الفرنسيات، ليجعلوا منهم أحباء لفرنسا وأعداء لنا... وهل يصنعون غير ذلك؟ بل هل تصنعون أنتم غيره لو جُنَّ الفرنسيون يوماً وأرسلوا أبناءهم إلى مدارس يعلّم فيها مشايخ المسلمين، كما ترسلون أنتم أبناءكم إلى الفرير حيث يعلّم قسوسُ الفرنسيين؟

هل عقلنا وفكرنا أن النصر لا يكون إلا بالإخلاص والرجولة والبعد عن الفساد والفجور؟ وأن

فرنسا (وهي أقوى منا) لما فسدت أخلاقها وغلبت عليها شهواتها ذلت حتى وطئتها نعال جنود الألمان ثلاث مرات، من سنة ١٨٧٠ إلى الآن؟ هل حاربنا الفجور المنتشر؟ هل استجاب أحد للصرخة التي صرختها في «الأيام» لمّا قلت إن قانون العقوبات لا يعاقب على الزنا، وطلبت أن يُعدَّل قانون العقوبات؟ هل انتصرت أمة بالرقص وباللهو حتى نكون مثلها فنجعل اللهو والرقص سبيلاً إلى النصر؟

هذا ما أتألم منه ويذوب قلبي حسرةً عليه، ولا أجد من يبالي به أو يحفله، فهل جننت أنا أم جُنَّ الناس؟

يا ناس، نحن في حرب، وليس في الدنيا أمة تعيش في الحرب كما تعيش في السلم، وإذا لم نستعدّ للبركان قبل أن ينفجر لا ينفعنا الاستعداد بعد الانفجار. فأين حَمَلة الأقلام، وأرباب المنابر، وكل ذي رأي مسموع وكلمة نافذة، ليدعو الأمة إلى اليقظة والانتباه والرجوع إلى الله؟

[كلمات صغيرة: هذه هي الحرب
فماذا أعددتم لها؟ (١٩٤٩)]

-٤١-

لقد انتهى عهد الاستعمار الذي كانت ترفرف راياته فوق أرضنا وتخطو جنوده على ثرانا، وخَلَفه استعمار آخر شَرٌّ منه، لا يحمل أخطارَه غرباء عنّا ولكن ناس منّا من أبنائنا، أخذهم الاستعمار فربّاهم على ما يريد هو فأتمّوا ما بدأ به، بل سبقوه وجاؤوا بما لم يقدر على أن يأتي بمثله!

ولكن ذلك -إن شاء الله- لا يدوم.

[الذكريات ج٥: ح١٣٥ (١٩٨٥)]

-٤٢-

لقد عرفت كثيراً من الزعماء المسلمين الذين قاموا يحاربون الاستعمار والمستعمرين، ولكنهم يسلكون طريقهم ويفكّرون تفكيرهم ويعتادون عاداتهم، ولا يكاد جُلّهم يتمسّك بما يدعو إليه الإسلام.

فخبِّروني: كيف يحارب الاستعمارَ مَن الاستعمارُ في رأسه فأفكارُه أفكار المستعمرين، والاستعمارُ في قلبه فهواه تَبَعٌ لهوى المستعمرين، والاستعمار في بيته وفي أسرته فسلوكه في البيت سلوك المستعمرين؟

إذا كنت لا أستطيع أن أتحرّر أنا منهم، فكيف أحرّر بلادي من الاستعمار؟

[الذكريات ج٥: ح١٤٥ (١٩٨٥)]

-٤٣-

لقد ناضلنا، وكان نضالاً صعباً مريراً خضنا إليه سواقي من الدم، من دماء أعدائنا ودماء شهدائنا، وتخطّينا ركاماً من الجثث، وبذلنا آلافاً من المُهَج، وحملنا فيه من الشدائد والصعاب ما ينوء ثقله بالصخور الراسيات[١]. تعاقبَت الثورات في الشمال، وعلى الساحل، ثم كانت الثورة الكبرى سنة ١٩٢٥ (وقد حدّثتكم حديثها)، ثم بدأت حرب الشوارع. حتى جاء الاستقلال.

إن هذا الاستقلال كالثروة التي يجمعها البخيل قرشاً إلى قرش، يجوع في سبيلها ويشقى لجمعها، فيأتي وارثه، أو يأتي من ليس له بوارث ولا له في إرثه حقّ، فيبذّرها باليمين وبالشمال، لا ينفقها على أمته ولا على وطنه ولكن... وتعرفون ما الذي يُقال بعد «لكن»، والمعروف لا يعُرَّف.

[الذكريات ج٢: ح٤٢ (١٩٨٢)]

-٤٤-

... ثم تعاقبت فيها المظاهرات، ثم كانت الثورة الكبرى، ثم عدنا إلى حرب الشوارع وسلاح الإضرابات والاضطرابات حتى كان الجلاء التامّ. أقصد جلاء الأجنبي بجيوشه عنا، حتى لم يبقَ له جندي واحد يخطر على أرضنا، ولا قلعةٌ مدافعُها موجَّهة إلينا، ولا رايةٌ ترفرف فوق رؤوسنا. تم هذا الجلاء، ولكنْ لم تَجْلُ أفكاره عن رؤوس أولادنا، ولا مبادؤه عن أحزابنا، ولا مناهجه عن مدارسنا، ولا قوانينه عن محاكمنا. وهذا هو الاستعمار الذي يَهون معه استعمار الديار. إن البذور التي بذرها المستعمر قبل رحيله أنبتت نباتاً لم نذق مثل مرارته أيام الاستعمار، وكان ما أبقاه فينا بعد نزوحه عنا أشدَّ علينا مما حمله معه لمّا جاءنا.

فكيف أخرجَت أرضنا السم الذي يودي بنا؟ كيف رأينا ممّن خرج من أصلابنا من هو أنكى علينا من عدوّنا؟

دعوني أقُل كلمة ليست من الذكريات. لقد رأيت في هذا العمر الذي عشته مِن تبدُّل الدول

وتحوُّل الأحوال ما هو عبرة من العبَر لمن شاء أن يعتبر. إنه ما مرّ بنا عهدٌ -على كثرة ما مر من عهود- إلا بكينا فيه منه، وبكينا بعده عليه! أفقُدِّر علينا أن نستكبر الشرّ فنأباه، ثم نرى ما هو أكبر منه فنطلبه فيأبانا؟

استكبرنا التقسيم في فلسطين ثم رأينا ما هو أكبر منه فطلبنا التقسيم، وأبينا ما كان قبل سنة ١٩٦٧ ثم عدنا نطالب بإزالة آثار العدوان والعودة إلى ما قبل ١٩٦٧! وأمثلة كثيرة على هذا الأصل.

هذا واقع السياسة وموقف أهلها. أما نحن، نحن المسلمين، فلا نَهِنُ وإنْ مَسَّنا الضر، ولا نحزن وإن حاق بنا الأذى، ولا نساوم في دين الله ولا نوالي عدوّ الله، ونؤمن بأن الله الذي نزّل الذكر هو الذي يحفظه وأن العاقبة للتقوى. لا نرتاب بديننا ولا نشك بوعد ربنا.

[الذكريات ج١: ح٢١ (١٩٨٢)]

-٤٥-

يحسب ناسٌ أن الاستقلال قد جاءنا عفواً بلا تعب، وأننا وجدنا يوماً مائدة مُعَدّة فقعدنا على كراسي مصفوفة من حولها ومن فوقها الزهر والورد وطبق مغطّى فتحناه فإذا فيه الاستقلال المطلوب! لقد نسي كثير منا ولم يدرِ كثير من ناشئتنا ما الذي دفعناه ثمناً له، من دمائنا الزكية التي أريقت، ومن نفوسنا البريئة التي أُزهقت، ومن بيوتنا التي كانت جنّات تجري في صحونها المياه نوافير تشرح الصدر دكّوها بالمدافع دكاً فتركوها خراباً.

فيا ليتنا، يا ليت العرب كلهم، يا ليت المسلمين جميعاً حافظوا على استقلالهم، يا ليتنا لم نصنع (أو لم يصنع بعضُنا بأيدينا) ما كان يبتغيه المستعمر منا.

إن الله جعل لكل شيء سبباً، فالفلّاح الذي يقعد عن شقّ الأرض وبذر البذر ثم يقول: "اللهم أنبت لي الزرع" لا يُنبت الله زرعَه. والتلميذ الذي يدع الدرس ويشتغل باللهو واللعب ويقول: "اللهم اكتب لي النجاح في الامتحان" لا يكتب الله له النجاح. والأمة التي تلعب حين الجِدّ ويتربص بها العدو فلا

تُعِدّ القوة للعدو وتطلب من الله النصر لا يكتب الله لها النصر.

لأن الله لا يبدل سننه في كونه وقوانينه في مخلوقاته من أجل فلاح مهمل ولا تلميذ كسلان ولا شعب غافل. فإذا أردنا معشر المسلمين أن يغيّر الله ما نحن فيه من التفرق والانقسام وتكالُب الخصوم وغلَبة الأعداء فلنغيّر أولاً ما بأنفسنا: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغيّرُ ما بِقَومٍ حتّى يُغَيّروا ما بأنفسِهِم﴾.

هذا هو القانون، فهل غيّرنا ما بأنفسنا؟

[الذكريات ج٧: ح٢٠٣ (١٩٨٦)]

-٤٦-

من العلماء من جمع خوف الله وجرأة القلب وطلاقة اللسان، فنزل إلى الميدان، يعلّم الجاهل ويقوّم المائل ويصلح الفاسد، ويؤدّي حق العلم عليه حين أخذ الله على العلماء أن يبلغوه الناس ولا يكتموه.

ولمّا ابتُلينا بالاحتلال كان الذين قادوا النضال وأوصلوا بلادهم إلى الاستقلال من هذه الطبقة من المشايخ والعلماء: الأمير عبد القادر الجزائري منهم، وعبد الكريم الخطابي وعمر المختار. والذين أيقظوا النُّوّام في مصر والشام: جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، والذي فتح للناس باب الجهاد في فلسطين عز الدين القسّام، وأمثال هؤلاء.

وكنا كلما قام فينا حاكم لا نرضاه أو مرّ بنا عهد لا نحبه، كان أول من يعمل على إزاحة هذا الحاكم وإنهاء هذا العهد هم علماء الدين وخطباء المساجد وشباب الإسلام. نحن نخوض المعركة وغيرنا يأخذ المغانم:

وإذا تكونُ كريهةٌ أُدعى لها
وإذا يُحاسُ الحَيسُ يُدعى جُندُبُ

ثم كَثُرَت الجنادب حتى لحسَت الحَيس كله، وحازت المآدب جميعها وأكلت ثمار الجهاد، والذين جاهدوا ينظرون بعيونهم من بعيد!

[الذكريات ج٥: ح١٤٩ (١٩٨٥)]

-٤٧-

لقد مات العهد الذي كنا نرى فيه فرنسا وأخواتها أممَ الحرية والديمقراطية والمدنية وحقوق الإنسان. لقد أبدت الحقائق وجوهَها التي كانت مُبَرْقَعَة ورآها الناس كلهم، إلا هؤلاء العميان الذين طمست أبصارَهم وبصائرَهم المدارسُ الفرنسية في الصِغَر والمواخيرُ الفرنسية في الكِبَر، وهم بحمد الله أقل من القليل.

لقد رأى الناس فرنسا على حقيقتها: أمة همجيّة تمنع الخبز عن الجائعين ليموتوا جوعاً، وإنكلترا تنصر الصهيونيين على الفلسطينيين والهولنديين على الجاويين، وأميركا تقول لصاحب البيت اخرج ليدخل اللص ويأخذ دارك... ولكن خَسَأ اللص وخَسَأ من ينصره، إن دون الحِمى آساداً.

أنتم -أيها الأميركيون- لا تدركون ما هي قوانا لأنكم لا تعرفون إلا المادة؛ إنكم لم تسمعوا بأخبار الفتوح الأولى في الشام والعراق ومصر والأندلس، ولا بأخبار الفتوح الآخرة في الغوطة والرّميثة وجبل النار وريف المغرب، فاسألوا عنها فارس والروم

وإسبانيا وفرنسا وإنكلترا.

إنكم تحسبون قضية فلسطين كقضية سرقة في شيكاغو، تدخلون بالرشاشات فتنهبون المخزن... كلا، والحيِّ القيوم، لن تكون لليهود دولة في فلسطين[1] ولن يكون للفرنسيين اتحاد مع المغرب حتى لا يبقى في هذه البلاد كلها حيٌّ يمشي. لن يأخذوها حتى يروا (ويرى مَن يُعينهم) يوماً يذْهَلُ له كتّاب التاريخ ويصيبهم من هوله الجنون، يوماً لا ترون فيه تاجراً في دكانه، ولا موظفاً في ديوانه، ولا تلميذاً أو مدرّساً في مدرسته، ولا قاضياً في محكمته، ولا امرأة في دارها... وإنما ترونهم يسيرون إليكم جميعاً، يقاتلونكم إن عجزوا عن السلاح بأيديهم وصدورهم، ويستنزلون غضب الله عليكم، فأبيدوهم يومئذ بقنابلكم الذريّة إذا مُحيت الإنسانية من الأرض واستُبيح قتل الشعوب، وإذن فستُنبت الأرض التي تَسقيها دماؤهم أمة جديدة تقاتلكم دون أرضها وحماها.

وإننا مع الله نستعينه عليكم، والله أكبر منكم. هذا نشيدنا الذي يهوّن علينا كل خطر ويصغّر كل عدو

---

(١) وإن هي كانت فلن تبقى.

مهما تكبّر: «الله أكبر». لقد علّمَنا ديننا أن نستوهب الحياة بطلب الموت، وحبّب إلينا نبيُّنا الشهادة، نلحقها إذا هربت منا ونفتّش عنها إذا ضلّت عنا. فبماذا تخيفون أمة تريد الموت؟

نحن نريد الموت ونسعى إليه؛ قد أعددنا الجيش للجهاد وهيأنا القوى للجِلاد، ولن نلقي السلاح ولن ندع الجهاد حتى لا يبقى في دنيا الإسلام وأرض العرب علم لأجنبي أو حكم لمستعمر، والله معنا، والله أكبر.

[هُتاف المجد: تحية البطلين (١٩٤٧)]

-٤٨-

... ثم غدر بنا الإنكليز الذين وعدوا الحسين فاغترَّ وصدّق، وحمله على ذلك خُبث طوايا الاتحاديين وسوء فعالهم ومحاربتهم العربية كيداً للإسلام. أعطاه مكماهون -باسم قومه- المواثيق، ثم عقدوا من وراء ظهره معاهدة «سايكس بيكو» التي تقاسموا فيها بلادنا كما يتقاسم اللصوص الغنيمة التي نالوها حراماً. وأنا لا أنقل صفحات معروفة من التاريخ، وهي تحت يدي لو أردت النقل عنها، ولكني أردت أن يؤمن الشباب بأن «الجميع» علينا، تداعوا لحربنا: حرب ديننا وعقيدتنا، لأن ذلك أساس قوّتنا، فإنْ نُسف الأساس هوى البناء.

تناوبوا توجيه المدفع، يتعب منه واحد منهم فيسلمه إلى آخر، وهو أبداً موجَّه إلينا وقنابله أبداً ساقطة علينا. فمِن بلفور الذي وعد، إلى غورو الذي أغار، إلى ساراي الذي هدم ثلث دمشق على من كان فيها فما لم يصل إليه الدمار أشعل فيه النار، إلى الذين تعهّدوا لإبليس بأن يحموا أمن إسرائيل، ولو كان أمنها لا يقوم إلا على خراب صيدا وصور وتحويل الدور والقصور إلى أطلال وقبور، وتجرِبة

السلاح الأميركي الجديد بقنابله العنقودية والفسفورية والتفريغية على الأطفال والنساء والشيوخ كما تُجرَّب الأدوية الجديدة على الفئران في المختبَرات...

لقد سمعنا بأن منهم من تأخذه الشفقة على حيوانات المختبرات فيحاولون إنقاذها، ولكن ما سمعنا فيمن رأوا ما يقع في بيروت بمن أشفق على أطفال كنَوْر الزهر وصبايا كرَيّا العطر وشيوخ تجسم فيهم العجز والطهر. لقد قُتل نفر من اليهود، أيْ من خنازير البشر، في كنيس في باريس (ولعل بني إسرائيل هم الذين دبّروا قتلهم ليتّخذوا منه حجة لهم)، قُتل نفر بفعل مجهول فقامت قيامة اليهود وكثير من النصارى، ويُقتل آلاف وآلاف ويُشوَّهون في بيروت بفعل مجرمين معروفين، يُقتلون عمداً حيث لا يَملكون دفعاً ولا منعاً، والعالَم المتحضر، عالَم «حقوق الإنسان»، يسمع ويرى فلا يحرك ساكناً إلا اللسان، وربما خرس اللسان إلا عن كلمة واحدة هي «الفيتو» يحمون بها ظهور المجرمين.

[الذكريات ج٢: ح٤٠ (١٩٨٢)]

-٤٩-

أحلف بالله ليصدّق القراء أن ما أكتبه اليوم قد وقع البارحة، وأنه ليس خيالة من خيالات الأدباء. نمت البارحة وفي ذهني موضوع الاستعداد للحرب والتيقظ له، وما يجب على الحكومة وما ينبغي للشعب. وكانت ليلة حارة من ليالي الصيف، فجرَّتْ عليّ حرارتُها ما أطار مني نومي ونغّص عليّ ليلتي، وأقامني الآن خائر الجسم دائر الرأس ثقيل الأجفان: جاءتني بعوضة، كلما أغمضت عيني تحوم عليّ وتطن في أذني، فأنهض وأفتش عنها وأستعد لها، فلا أراها، وأحاول المنام فتعاود التحويم والطنين... واستمرت على ذلك الليلَ أكثره إلى مطلع الفجر، فكدت أعتذر من صاحب الجريدة وأدع الكتابة اليوم، ثم قلت: لماذا لا أصف حالي مع البعوضة، فأكون قد دخلت في موضوعي وأنا لا أشعر؟ وإذا كانت بعوضة واحدة قد طردت النوم عني وسهّدَت عيني، فكيف لعمري ننام ويهود في فلسطين لا تزال تطنّ إذاعتها في آذاننا؟

هذا هو الموضوع. قلت أمس في خطبة الجمعة التي أذاعتها محطة دمشق إننا في حرب؛ إن كل دولة

عربية في حرب ما بقي في فلسطين يهودي واحد، وإننا قد خسرنا الجولة الأولى. نقول ذلك بلسان الرياضي الذي ينهزم ولكنه يعلم أن أمامه جولات. ونحن نرحب بالحرب، فنحن بنو الحرب، ونحن رجال الجِلاد، ونحن لا نخشى الغارات ولا تطير قلوبنا شَعاعاً عند أول قنبلة تُلقى، ولكنّا لا نريد -مع ذلك- أن نتلقى الضربات تلقّي الغنم ضربة الذئب. إن علينا أن نعد وأن نستعد، وإني أُجمل هنا المنهج الذي أراه، لعلي أعود إليه -بعدُ- بالتفصيل والبيان.

يجب أولاً أن توضع الموازنة على أسلوب جديد، فتُمحَى منها كل نفقة يستغنى عنها، ويُلغى كل مصرف لا ضرورة إليه ولا لزوم له، ويشترى بذلك كله السلاح والعتاد. ويجب أن تعنى الحكومة بالدعاية والحرب الأدبية. ويجب تعميم الفتوّة على المدارس كلها وعلى الجامعة، وتدريب الناس جميعاً فنون الحرب ونشر روح الصبر والاحتمال والحماسة في الأمة. ويجب محاربة كل مظهر للرذيلة وللخنوثة، لأن ذلك كله إضعاف لنا وتقوية لليهود.

إن بعوضة طنّت في أذني جعلتني لا أستطيع المنام، فهل تستطيعون النوم -يا ناس- وإسرائيل

تطن إذاعتها في آذانكم، وإسرائيل تتربص على حدودكم، وإسرائيل قد سلبتكم أرضاً من أرضكم وقتلت إخواناً من إخوانكم؟

من نام على عدوه فما أقرَّ الله عينه بمَنام!

[كلمات صغيرة: نحن في حرب
فاستعدوا للحرب (١٩٤٩)]

- ٥٠ -

أكثر الناس لا يدرون من أمر فلسطين إلا قليلاً ولا يعلمون عن نكبتها شيئاً! فلينظم الشعراء القصائد في نكبة فلسطين، وليتغنَّ المغنّون بشعر فلسطين، ولتؤلَّف اللجان في كل بلد عربي، في كل بلد مسلم لإنقاذ فلسطين، ثم انظروا ما يكون: مَن يقرأ هذا كله أو يسمعه ثم يقيم آمناً في داره يأكل ويشرب ويلهو ويلعب، ولا يقول لأولاده وبناته: اقتصدوا في نفقاتكم ووفّروا ما تشترون به الحياة لإخوانكم، لنجتزئ بالثوب عن الثوبين، وباللون من الطعام عن اللونين، ثم ندفع هذا وذاك ثمناً لحياة فلسطين... وقد دفعه أجدادنا في حطين يقودهم صلاح الدين؟

لقد مرّ على دخول الإنكليز فلسطين خمس عشرة سنة، ودخول اليهود معهم، حشرات متعلقات بأذنابهم. أفما تكفينا خمس عشرة سنة[1] لنصحو من نومنا ونفتح عيوننا، فنبصر الماء يجري من تحتنا

---

(١) دخل الإنكليز فلسطين سنة ١٩١٨، عقب هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، ونشرت هذه المقالة سنة ١٩٣٣ (مجاهد).

وبوادر النار من حولنا، والهوة السحيقة أمامنا نمشي إليها بأقدامنا؟ إن كل عربي وكل مسلم على وجه الأرض مسؤول عن نكبة فلسطين ومُلام إن قصر بالدفاع عنها. لم تأتِ الآن معركة الدم والحديد، فلنحارب بالمال، لنردّ عدوان اليهود بالفكر السديد، بالخُطَط المدروسة، بالاتحاد، وقبل هذا كله وبعد هذا كله بالعودة إلى الله، لأن العدوّ مهما كبر ومهما كبر مَن يعينه وينصره فالله أكبر، فمن كان مع الله لم يخَف أحداً.

لنبدأ بجمع المال لإنقاذ فلسطين، ليقدّم كلٌّ ما يستطيع لا يخجل به مهما قلّ. أنا رجل مفلس، ولكني أستطيع أن أقدّم نصف ليرة كل شهر، فليقدم كلٌّ ما يستطيع. الأدب، ثم المال، ثم الدم... هذه هي أركان الحياة، فإذا كان فينا مخلصون فليسيروا في هذا الطريق بخطوات سريعة وثابتة.

يا أيها الناس، إخوانكم يُطرَدون من ديارهم ويموتون، فاشتروا حياتهم بمالكم. إن شبح الموت يلوح في أدنى الأفق، ولا يجوز الصبر يوماً واحداً. إن النار إذا بلغت فلسطين فإننا نحترق لا محالة.

[البواكير: الأدب القومي أيضاً (١٩٣٣)]

الذي رأيته ورآه الناس كلهم هو أن تاريخ الظلم والسرقة والغصب والتعاون على الإثم والعدوان لم يعرف أبشع ولا أشنع ولا أفظع من قضية فلسطين، ناس آمنون في مساكنهم التي ورثوها عن آبائهم واشتروها بأموالهم، ما لأحد حق فيها معهم، جاء مَن لا يخاف الله ولا يتقي العار ولا يأبى اللعن فوعد بها عصابة من أخسّ اللصوص، ثم سعى حتى ولّوه هو أمرها و«انتدبوه» لتعليم أهلها فنون الحضارة، فكان خصمَها الحاكم فيها، وكان «حاميها»!

وعدٌ آثم بعده تعاون ظالم. ما اتفقَت دولة الشرق ودولة الغرب إلا علينا، هم دوماً في خصام ولكنهما يتفقان إنْ جمعهم عداؤهم للإسلام. ما التقى صاحب «البيت الأبيض» وصاحب «البيت الأحمر» إلا على كرهنا وعلى قتالنا، يعطوننا كلاماً حلواً، والكلام «بلاش»[1] ويعطون عدوّنا وسارقي أرضنا كل ما يريدون: من الشرق رجالاً لهم أيدٍ تعمل وأدمغة تفكر، ومن الغرب مالاً يبني لهم وسلاحاً

---

(١) بلاش (العامية) أصلها بلا شيء.

يقتلنا نحن، فإلى أين نلجأ؟

الملجأ قريب منا والمَنجى أمامنا، ولكن بهرج الحضارة المادّية أزاغ عنه أبصارنا، ذلك هو «البيت الأسود» في بطن مكة، البيت الذي يلبس الثوب الأسود وهو الأبيض بياض النهار المشرق، بياض النور الهادي، بياض الحق الأبلج. رَبّ هذا البيت الأسود هو وحده القادر على إنقاذنا من صاحب البيت الأبيض والبيت الأحمر، والبيت الأصفر إن انضم إليهما وكان معهما علينا في تأييد عدونا! فلماذا لا نرجع إليه، وبابه مفتوح ويده مبسوطة؟ لماذا نحول وجوهنا عن بابه؟

لماذا لا نُدخِل الإسلام في المعركة فيدخلها معه ألف مليون؟ إن جعلناها عربية خالصة لاسترداد الأرض العربية أبعدناهم عنا، ولكن إن جعلناها جهاداً إسلامياً لاسترجاع قبلة المسلمين الأولى ومسرى نبيّهم كانت معركتهم، ما نحن بأحق بها منهم لأن الأقصى لنا ولهم، والإسلام يجمعنا ويجمعهم.

[الذكريات ج٢: ح٦٢ (١٩٨٣)]

إن قضية فلسطين لم يَجرِ مثلها ولا في أيام نيرون. ولو قرأناها في أخبار الأوّلين لما صدّقنا أنه يسوغ في إنسانية البشر وعقل العقلاء أن تقول لرجل: اخرج من دارك ليأوي إليها هذا المتشرّد المسكين، ونَمْ أنت في الزقاق أو اضطجع على المزبلة، أو مت حيث شئت. هذا قضاء المدنيّة وهذا حكم الديمقراطية!

وإن حوادث المغرب لم يقع مثلها ولا على عهد محاكم التفتيش، أن يُذبَح عشرات الألوف من الأبرياء[١] لأنهم قالوا لمن دخل عليهم بلدهم

---

(١) أظنه يشير هنا إلى المجزرة الكبرى التي اشتهرت في التاريخ الجزائري باسم مجزرة ٨ ماي (الثامن من شهر أيار سنة ١٩٤٥)، عندما خرج الجزائريون إلى الشوارع مطالبين فرنسا بالوفاء بوعدها ومنح الجزائر استقلالها، فقابلت فرنسا جموع المتظاهرين بالنار وقصفتهم من الأرض ومن الجو ومن البحر، فاستُشهد من الجزائريين نحو خمسة وأربعين ألفاً سقطوا على تراب الجزائر في يوم واحد (مجاهد).

واغتصب أرضهم وأكل خبزهم: أطعمنا معك من خيرات أرضنا، وارفق بنا في عدوانك علينا!

فهل أَحْسَسْنا حقيقةً ببغضاء الفرنسيين والإنكليز؟ ألا يزال فينا من يثني على الإنكليز في الصحف «تقريراً للحقيقة» ويودّع المجنّدات الإنكليزيات بالأسى «تقديراً للجمال»؟ ألا يزال فينا نواد أقيمت لتثبيت الصداقة بيننا وبين هؤلاء الذين فعلوا هذه الأفاعيل في فلسطين والمغرب؟

فكيف يجتمع الحب والبغض في قلب واحد؟!

[هُتاف المجد: من حديث الجهاد (١٩٤٧)]

-٥٣-

هل تعرفون قصة المحتال الذي وجد غنياً مغفّلاً فأحب أن يسلبه ماله فباعه الأهرام؟ إنه مجرم باع شيئاً لا يملكه وأخذ به ثمناً لا يستحقه، والذي اشترى أحمق لأنه ظن أنه ملَكَ الشيء الذي اشتراه ممّن لا يملكه.

ربما كانت القصة مكذوبة متخيَّلة، فما تهمّني صحتها ولا جئت أحقّق خبرها بل جئت أروي قصة مثلها، من نوعها وجنسها ولكنها أكبر منها وأشد ضرراً وأعمق في الشر أثراً، وهي -بعدُ- صحيحة لا يجادل أحد في صحتها.

قصة رجل وهب أرضاً لا يملكها هو ولا أبوه ولا قومه، لمجموعة من اللصوص الأشرار ما لهم فيها ذرة من الحق، ولا كَهْرَب واحد (إلكترون) من كهارب الذرة الواحدة. وهبَ فلسطين لليهود الملاعين! وإن قلت ملاعين فما أشتمهم، بل أصفهم بما خبَّرَ ربنا أنه فيهم: ﴿لُعِنَ الذينَ كفروا مِن بَني إسْرائيلَ على لِسانِ داوُدَ وعيسى بنِ مريمَ﴾.

[الذكريات ج١ : ح٢١ (١٩٨٢)]

-٥٤-

ألا ليشهد العالم كله أن المسجد الأقصى حق صريح من حقوق المسلمين، وأنهم لا يتنازلون عن شبر منه لمخلوق، لأن في ذلك تنازلهم عن دينهم وعربيتهم، عن إبائهم وشرفهم، وهذا ما لا يكون قط أو تُبدَّلَ الأرضُ غيرَ الأرض والسماوات!

ليس في العالم كله مسلم واحد يستطيع أن يمرّ بهذه الحوادث، حوادث الزِّراية على الإسلام في ثالث مساجده، حوادث الاعتداء على المسلمين في عقر دارهم، ولا تثور في رأسه الحميّة الإسلامية وفي نفسه النخوة العربية، فيغضب لله ويغضب لدينه، ولن يتأخر لحظة واحدة عن أن يبيع نفسه وماله من الله بأن له الجنة.

لا والله، ما كان الإسلام أبداً دين ذلة وخضوع، وما كان أبداً دين ضعف وعجز، فلا يَغُرَّنّ هذه السنانيرَ من هذا السبع نومتُه، فوالله إنْ نهض لهم ما تبقى منهم باقية.

[مقالات في كلمات: ألا ليشهد العالم كله (١٩٥٠)]

كان أول ما يطلبه اليهود (وقد أدركت هذا كله) أن يُسمح لهم بالهجرة إلى فلسطين، ثم جاء مَن يعدهم بأن يقيم لهم فيها وطناً وهو لا يملكها ولا يَنْفُذ وعده فيها، ثم كان التقسيم الذي أبَيناه ثم رجعنا نطالب به! ثم أخذوا ما كان فيه من قسمتهم وما كان من قسمة غيرهم، ثم لبثوا دهراً يَدْعون إلى المفاوضات ونحن نقول: "لا مفاوضات ولا صلح ولا اعتراف"، حتى دعوها بـ«اللاءات العربية».

فكيف تبدلت الحال فصرنا (أي صار أهل السياسة منا) يؤيدون ما سمّوه بمسيرة السلام؟! يطلبون الصلح مع الحرامي الذي دخل الدار والحرامي يشمخ بأنفه ويتكبر! لا لضعف فينا ولا لقوة له، بل لأن من يقول تلك المقالة منا يصدر عن وحي عقله ويعبّر عن رأيه، والعقولُ تخطئ وتصيب. ليسوا من علماء الدين الذين يهتدون بهديه ويسيرون في طريقه فلا يضلّون أبداً.

[نصر من الله وفتح قريب (مقالة غير منشورة في الكتب) (١٩٩٠)]

-٥٦-

صِحنا وطالبنا وشكونا إلى مجلس الأمن لمّا عدا اللصوص العادون على حيفا ويافا وعكّا، ثم نسينا عكّا ويافا وحيفا وجعلنا أكبر همّنا وأقصى مطالبنا بعد نكبة ١٩٦٧ المطالبة بإزالة آثار العدوان، المطالبة باللسان لا بالسيف والسنان، أي إبقاء ما كان على ما كان!

ثم كانت فتنة الدعوة إلى السلام، أي أن يصطلح صاحب البيت مع الحرامي، فيترك له ما سرقه أولاً ليردّ إليه ما سرقه ثانياً، فأمسك اللص بالسرقتين وزاد عليهما سرقة بعض أرض لبنان!

وما السبب في هذا كله؟ السبب أن المرء إنْ طرقه اللص طلب شرطة النجدة، والشرطي هنا حليف الحرامي يمدّه بالمال وبالسلاح ليحمي أمنه. أي أن من حقّ اللص إن دخل داراً غير داره وسرق ما فيها وطرد أهلها، من حقّه بمنطق هذا الشرطي أن ينام آمناً فلا يزعجه صاحب الدار عن منامه بحركته أو بكلامه!

[الذكريات ج٢: ح٤٤ (١٩٨٢)]

-٥٧-

زعم اليهود أنهم مظلومون، وأنهم قد نُكِّل بهم وأُوذوا، وأن هتلر أباد خضراءهم وقتل أبناءهم، فتحركت «الرحمة!» في قلوب الأقوياء من دول الأرض، فأرادوا أن يجدوا لهم داراً فلم يجدوا إلا أرضنا! فأجبرونا أن نخرج من مساكننا وأن نمنحهم خيرات بلادنا، وجاء وزير المتمدنين الذين يلبسون جلود الظِّباء على أجساد الذئاب، فأعطاهم «وعداً» بأن يجعل لهم من قلب بلادنا الملجأ، هو يمنحهم ما لا يَمْلك وهم لا يستحقون ما منح، فكانت فضيحة التاريخ البشري التي لم يُسمَع بمثلها في حاضر ولا غابر.

وها هم أولاء اليوم يدعوننا إلى السلام ونبذ الحرب، يقولون: أليس السلام خيراً لكم؟ فلماذا تُراق الدماء وتُزهَق الأرواح؟

إن السلام الذي يدعوننا إليه كالسلام بين اللص الذي اقتحم دارك وقتل بعض أهلك وسكن في بعض منزلك، فلما أردت أن تخرجه قال: انظروا إلى هذا «الإرهابيّ»... ودَعَوا إلى الاجتماع على حرب

الإرهاب. إننا نسمع كل يوم عن فلسطيني أُخذ بتهمة «مقاومة الاحتلال»، فهل تكون تهمةً مقاومةُ الحرامي المجرم الذي جاء يحتل دارك؟!

[هُتاف المجد: قصتنا مع اليهود (١٩٨٩)]

كانت نسبة اليهود في بغداد إلى مجموع سكانها أعلى نسبة، أو من أعلى النسب في العالم، حتى إن المرء لا يكاد يستطيع أن يشتري سلعة يوم السبت! كانت الوظائف المالية في أيديهم، وكان في بغداد عند الجسر العتيق خان قديم أظن أن اسمه خان الباشا، فيه -كما فهمت- كِبار تُجّار الجملة والصرّافون وأهل العملة، وكثير منهم، كثير جداً من اليهود.

وما كنّا نحن المدرّسين ولا كان الناس في بغداد يفرقون -من كرم نفوسهم وطيب شمائلهم- بين يهودي ومسلم. ما كان يضيع عليهم شيء من حقهم، بل كانوا يأخذون عشرة أضعافه ثم يسرقون حق غيرهم! فلما قامت على أرض فلسطين هذه الدولة الآثمة الظالمة لتسلب العرب أرضهم وتسرق أموالهم وتتعدّى على حريتهم وكرامتهم، لا بقوتها وبأسها، فما كان اليهود أبداً أُولي بأس وقوة ولا كانوا أولي نُبل وشهامة، بل بقوة مَن يقوم وراءها يحميها ويقويها على باطلها ويمدّها بما يزيد عدوانها. لمّا قامت هذه الدولة نسوا تلك المعاملة التي كنا نعاملهم

بها والتي لم يجدوا مثلها من أمة من الأمم، وانضمّوا إلى دولة إسرائيل.

أنكروا فضلنا كما جحد أجدادُهم فضلَ أجدادنا! وهذه هي أخلاق اليهود في كل زمان ومكان، اليهود كلهم لا الصهيونيون فقط، لا فرق بين يهودي وصهيوني، تتبدل الثياب ولا يتبدل مَن فيها.

[الذكريات ج٤: ح١٠٠ (١٩٨٤)]

إن أهل فلسطين إخواننا وأشقاؤنا، لهم علينا، على العرب كلهم، على المسلمين جميعاً، حق الشقيق على الشقيق. وإن هذه الأرض الحبيبة، أرض فلسطين، وطننا، وطن العرب كلهم، وطن المسلمين جميعاً، ولها علينا حق الأوطان على أهلها، وإن فيها من ذكريات البطولة والمجد ما يهز القلوب ويثير العزائم.

ولكن القضية أكبر من النّسَب والأخوّة، وأكبر من الوطن والوطنية، وأكبر من النخوة والحماسة. إنها قضية دين وعقيدة؛ إن كل مسلم يدخل المسجد الأقصى ويقوم حيال الصخرة ينسى كل شيء إلا أنّ ههنا موطناً من مواطن الروح، منزلاً من منازل القُدُس، تُسترخَص في سبيله الأرواح ويُبذَل في سبيله كل شيء. إنها قضية جهاد في سبيل الله، والله هو الباقي إذا ذهبت البطولات والأمجاد، وصحف الحسنات هي الخالدة إذا فنيت صحف التاريخ، وما كان لله فهو المتّصل.

ثم إنها قضية حق لا يستطيع منصفٌ في الدنيا

إلا أن يكون معها. وهل في الدنيا منصف واحد، هل فيها رجل يحترم رجولته وإنسان يقدّر إنسانيته، يُقِرّ منطق الصهيونية وأنصارها: يا صاحب الدار، إني أريد أن أسكن في دارك، فاخرج منها وتنازل لي عنها وإلا ذبحتك وذبحت أولادك؟!

الحق معنا، ولكن سنّة الله في هذه الدنيا أن الحق إن لم تكن معه القوة سطا عليه الباطل حيناً. وللباطل جولة ثم يضمحل، ونحن لمّا ترَكْنا سنة الله ولم نَحْمِ حقّنا بقوّتنا كان ما كان في فلسطين.

[هُتاف المجد: يا أهل فلسطين (١٩٥٧)]

-٦٠-

لا يقل واحد منكم: أنا لا يعنيني.

كل واحد منكم مسؤول، كل واحد بحسب طاقته: الشحّاد يستطيع أن يساعد فلسطين بقرش في الشهر. قرش في الشهر، وفرنك في الشهر، وورقة[١] في الشهر، وخمس أوراق في الشهر تحيي فلسطين!

سيبكي بعض القرّاء وينتحب، ثم ينام ولا يدفع شيئاً. سيهزّ بعض الموظفين أكتافه ويقول: "أنا لا أشتغل بالسياسة"، ثم يذهب إلى السينما أو البار أو دار القمار! سيفرك الشيخ كفّه ويقول: "إنّا لله وإنّا إليه راجعون"، ثم يذهب يَعُدّ قروشه على سبحته! سيلوّح التاجر بيديه ويقول: "التجارة واقفة، ماذا نصنع؟" ثم يذهب إلى السوق ليشتري بسبعين قرشاً طعامَ يوم واحد!

---

(١) «الورقة» هو الاسم الدارج في الشام للّيرة، و«الفرنك» هو الاسم الذي كانوا يطلقونه على القطعة النقدية ذات الخمسة القروش (أي أنه جزء من عشرين جزءاً من الليرة)، وكان وأنا صغير أقلَّ وَحْدة نقد، وقد انقرض اليوم ولم يعد له وجود (مجاهد).

يا أيها الناس: إن المئات من النساء يَدُرْن في الطرقات جائعات عاريات، في مدن فلسطين وفي أراضي الشام. فمَن يتطوّع للبحث عنهن ومساعدتهن؟ من يتقدّم فيستأجر لهن الدور ويجمع من الناس فينفق عليهن؟

أتذهب هذه الكلمة صيحةً في واد؟ ألم يبقَ في البلد مسلم؟ ألم يبقَ عربي؟ ألم يبقَ شريف؟ ألم يبق إنسان؟ أتعاد مأساة أندلس جديدة وأنتم تنظرون؟ ألم يكفِ هذا الموقف المخجل الذي وقفه زعماء العرب؟ أتكون الشعوب العربيّة أيضاً مقصّرة؟

مئة وعشرة أيام مرّت على فلسطين، لا البائع باع فيها ولا الصانع اشتغل ولا الأجير أخذ أجرته، فمن أين يعيش فقراء فلسطين؟ من أين يجدون ثمن الخبز؟ ألم تفكّروا في هذا؟ ألم يخطر لكم على بال؟ أتأكلون وتشربون وتلعبون وتطربون وأهل فلسطين يموتون؟ يا للعار![١]

أما إنها والله ليست مسألة كلام يُقال ولا مقالة

(١) نشر علي الطنطاوي رحمه الله هذه المقالة أيام الإضراب الكبير سنة ١٩٣٦ (مجاهد).

تُكتَب ولا خطبة تُخطَب، ولكنها مسألة حياة أو موت، فتبّاً لمن ينظر أخاه يموت ولا يمدّ إليه يداً، وسُحقاً لمن يرى أخته تموت من الجوع ولا يقدم لها رغيفاً. إن من يفعل هذا ليس مسلماً ولا عربياً ولا إنساناً!

[هُتاف المجد: يا للعار (١٩٣٦)]

-٦١-

إنّ مَن يسمع صوت قطة في الشارع تموء من الألم لا يستطيع أن ينام، ومن يدقّ جاره بالمطرقة على جداره لا يستطيع أن ينام، فكيف ننام وأصوات المشرَّدين الهائمين من الأطفال والعجائز، من النساء والضعفاء، تملأ آذاننا، تخرج من شقوق الخيام التي مزّقتها الرياح ومرّت في جوانبها، وأثقلها الثلج الذي هبط عليها ولفّها الصقيع وجمّدها، في جبال الأفغان وفي المخيمات في لبنان؟

أتنامون على أصواب الاستغاثة من حلوق إخوانكم وأخواتكم، على أصوات المدافع والصواريخ يصبّها عليهم أعداؤهم وأعداؤكم؟

هل تستطيعون أن تأكلوا وتشربوا وتضحكوا وتمزحوا، وإخوانكم هناك في فلسطين؟ قولوا «فلسطين» ولا تقولوا الضفة ولا القطاع فتعينوا الصهيونيين على ما يريدون من محو اسم فلسطين. إخوانكم هناك يذبح أبناءهم اليهودُ ويؤذون نساءهم، ينسفون منازلهم، يهدمون معاقلهم، يسرقون أرضهم، كاللص يدخل عليك في الظلام دارك

فيحتلّ جانباً منها فيدعوك إلى التفاوض. أفيفاوض ربّ الدار الحرامي؟ إذن فعلى العقل وعلى العدل السلام.

وإن قام من أولادك من يطلب بالحقّ أمسكوا به وأحالوه إلى محاكمهم، إلى محاكم الحرامية، بتهمة مقاومة الاحتلال! ويلكم ما أصفق وجوهكم وأشدّ وقاحتكم! أفي الدنيا شعب احتُلّت بلاده ظلماً لا يقاوم الاحتلال؟ إن مقاومة الاحتلال فضيلة، بل هي فريضة، ولا تُعَدّ جريمة إلا في شريعة خنازير البشر إخوان «الشين»: شارون وشامير والشيطان الرجيم، الذين هم إخوانه وأعوانه لعنة الله عليه وعليهم.

كم من أمهات هناك ثاكلات وبنات مهتّكات، وبيوت مخرَّبات ودموع مسفوحات، وأعزّة كرام ذلّوا وأغنياء احتاجوا، شُرّدوا وسكنوا بعد القصور الخيام، وصاروا بعد البذل والعطاء محتاجين إلى القوت وإلى الغطاء. فإن لم تدافعوا عنهم بالسلاح ولم تبذلوا من أجلهم الأرواح فجودوا بالأموال، فإن الجود بالأموال نوع من الجهاد.

[الذكريات ج٨: ح٢٢٦ (١٩٨٧)]

-٦٢-

مرّت خمسون سنة ونحن نُنْذر ونحذّر، نقول: إننا في حرب مع أمكر وأخسّ البشر، فهل رأيتم من يعيش في الحرب مثل عيشه في السلم؟ هل رأيتم من ينفق فيها على السرف والترف والكماليات، بل على ما لا صلة له بالكمال، ما فيه إلا النقص والعار؟ ننفق ولا نزال ننفق! نصبّ في هذه البالوعة ما لو وفّرناه لكان لنا منه جيش ينقذ فلسطين ويخلص كل بلد مسلم يعاني مثل الذي تعاني فلسطين.

طالما قلت للناس: إن هرّة مريضة تموء في الشارع تحت شبّاكك تطرد من عيونك النوم، فكيف تنام ومن إخوانك العرب المسلمين من يئنّ ويشكو ويمزق من بكائه سكون الليل؟ من يدق جارُه مسماراً في جداره يفيق مذعوراً ويتعذر عليه المنام، فكيف تنام وفي الأرض عرب مسلمون تدك المدافعُ دورَهم وتهدم بيوتَهم، مدافع أصداؤها تملأ الدنيا، أفلا تسمعها؟

خمسون سنة ونحن نقول إن فلسطين أمانة في عنق كل عربي، عقيدة في قلب كل مسلم، فأنقذوها؛

أنقذوا المسجد الأقصى، مسرى نبيّكم، قبلتكم الأولى. لا تنفقوا قرشاً بعد نفقتكم ونفقة عيالكم إلا على فلسطين، لا تبذلوا جهداً بعد الضروري من جهودكم لتأمين معيشتكم إلا على فلسطين. إن اليهود يعملون على سرقتها كافّة فاعملوا أنتم على استردادها كافّة. قاتلوا مجاهدين في سبيل الله لا لمجرد استرداد الأرض، فالأرض تُستَرَدّ بالجهاد الذي معه عون الله، ولكن عون الله لا يأتي لمجرد القتال للأرض. لا تيأسوا فإنه لا ييأس من رَوح الله إلا القوم الكافرون.

[الذكريات ج٢: ح٦٢ (١٩٨٣)]

-٦٣-

لقّنوا أولادكم مع حليب الأمهات وجوب الجهاد لاسترداد فلسطين، علّموهم كلمة «فلسطين» مع كلمة «بابا» و«ماما». فإذا كنا نحن -مع الأسف- جيل الهزيمة لبُعدنا عن ديننا واختلافنا في أمرنا، فسيظهر منهم جيل النصر، ولو بعد خمسين سنة أو مئة سنة.

أما لبثَت القدس بأيدي من كانوا أقوى من اليهود نحواً من مئة سنة؟ فما احتاج استردادها إلا لمَن يطوي راية الجاهلية وينشر راية الإسلام، ويرمي السيف الذي استعاره من الكافر ويضرب بسيف محمد ﷺ، ويدَع دعوة الباطل ويَدْعو بدعوة الحق.

إن نسيتم فاقرؤوا تاريخ عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين، الذين قاموا في زمان كنّا فيه أكثر انقساماً وأشد اختلافاً؛ كان في سوريا وحدها عشر حكومات إسلامية وصليبية، كانت حماة دولة وشَيْزر دولة، كان في صَرخد (وهي قرية في جبل الدروز) دولة! فلما جاءت دعوة الإسلام محت دول الباطل، دول الضعف والانقسام، وأقامت دولة الوحدة تحت

راية التوحيد. لقد أضعنا أياماً كثيرة وفرصاً كثيرة، ولكن لا يزال تدارك الأمر ممكناً.

تقولون: بماذا؟ بتغيير هذه الحال. تقولون: كيف نغيّر هذه الحال؟

لقد شرح الله لنا القانون: ﴿إنّ اللهَ لا يُغيّر ما بقَوم حتى يُغيّروا ما بأنفسِهم﴾. فهل غيّرنا ما بأنفسنا؟ هل طهّرناها من أوضار الشبهات وأدران الشهوات؟ هل بدّلنا بتفرّقنا اجتماعاً على كتاب الله؟ هل سددنا آذاننا عن وسواس الشيطان من الإنس ومن الجانّ وفتحناها لنداء الرحمن؟

أمرَنا الله أن نُعِدّ السلاح للمعركة فقال: ﴿وأعِدّوا لهم ما استطعتُم مِن قُوّة﴾. فلا بد من القوّة ولا بد من السلاح، ولكن هل نُعِدّه لأن النصر مقرون دوماً وحتماً بالسلاح؟ لا، بل للإرهاب: ﴿تُرهِبون به عدوَّ الله وعَدُوَّكم﴾ ﴿وما النَّصرُ إلا مِن عندِ الله﴾. وأنزلَ الله يوم بدر ملائكة، ولكن للتطمين: ﴿وما جَعَلهُ الله إلا بُشرَى ولِتَطمَئنَّ به قُلوبُكم﴾ لا للنصر فالنصر من الله، مع الملائكة ومن غير أن تنزل ملائكة، فاطلبوه منه بعد استعدادكم له.

هذه عقيدة المؤمن وهذا تفكيره وهذه نفسيته،

يعمل كل ما يقدر عليه ولكن لا يعتمد عليه وحده، بل على قوة من آمن به ووحّده التوحيد الكامل وجاهد في سبيله.

[الذكريات ج٢: ح٦٢ (١٩٨٣)]

-٦٤-

عدنا إلى اللجان والوفود والبحوث والدراسات. لم يكفِنا أنا اشتغلنا بالمؤتمرات والتصريحات واليهودُ يستعدون، وأنّا عقدنا الهدنة ونحن يومئذ الغالبون، حتى جئنا اليوم نوفد الوفود ونتسلى بالكلام وفلسطين يملكها الصهيونيون.

هم أوقعوا الأمر ونحن رضينا بـ«الأمر الواقع»، وهم أخذوا ديارنا قسراً ونحن نطلب منهم «السماح» لنا بالعودة إلى ديارنا، وهم «جمدوا» أموالنا غصباً ونحن «نسألهم» أن يعيدوا إلينا أموالنا، وهم عصوا هيئة الأمم ونحن أطعنا، وهم فعلوا ونحن قلنا، وهم نجحوا ونحن خُذلنا. وهم أقل من مليون من نفايات الأمم، ونحن سبع دول فيها أكثر من أربعين مليوناً!

كأننا نحن اليهود أهل الذِلّة والمسكنة، وهم العرب أولو العزة والإباء!

ولكن لا، لا والله ما ذل العرب ولا عزت يهود. وإنّا -على ما عرفَنا التاريخ- أمة البذل والإقدام والبطولات، ما فقدنا سلائقنا ولكن فقدنا قادتنا. من قادتنا البلاء ومن زعمائنا، من الذين كانوا

منقسمين على أنفسهم في فلسطين يوم كان زعماء اليهود متحدين، من الذين كانوا يبتغون لذائذ الزعامة وقصورها وبذخها وولائمها ورحلاتها يوم كان زعماء اليهود لا ينفقون قرشاً في غير السلاح والعتاد، من الذين كانوا يملؤون الدنيا كلاماً فيكشفون أسرارهم للقريب والبعيد يوم كان زعماء اليهود يستعدون صامتين، من الذين عملوا لأطماعهم وشهوات نفوسهم يوم كان زعماء اليهود لا يعملون إلا لقضيتهم وحدها، من الذين كانوا لعبة في أيدي أميركا وإنكلترا يوم كان زعماء اليهود يلعبون بإنكلترا وأميركا...

فهل اعتبر هؤلاء الآن؟ هل علموا أن مدافع المُبطِل تضيع معها خطب المُحِقّ فلا تُسمَع، وأن الدنيا لمن غلب؟ هل اعتبروا الآن وفهموا؟ فماذا ينتظرون؟ أليست فلسطين لنا؟ أليست ديارنا؟ أليس الصهيونيون لصوصاً غاصبين؟ فإلى متى يبيت صاحب البيت في الشارع والمسدس في يده واللص ينام في البيت على السرير؟

أتريدون أن نصير مَعَرّة تاريخ العرب وأن يلعننا الأحفاد؟

[كلمات صغيرة: نحن واليهود (١٩٥١)]

-٦٥-

لقد كتبنا نقول إن اليهود يستعدون ونحن نائمون، وإنهم يَجِدّون ونحن هازلون، نستثير بذلك الهمم ونستفز العزائم، ولكنا جاوزنا الحد وأربينا على المدى فانقلبت الدعوة شراً وضراً، إذ صار الناس يتوهمون في اليهود قوة وبأساً ويحسبون لهم حساباً، فوجب علينا أن نعود فنكشف لهم عن الحقيقة وندلّهم على الواقع.

والحقيقة هي التي ترونها وتسمعونها كل يوم. ألا تسمعون أن جماعات من جند يهود يهجمون بأسلحتهم الحديثة وعتادهم الجديد ومدافعهم الثقيلة على القرى العربية في المنطقة الحرام، فيردهم أهلها أقبح الرد ويقتلون منهم ويأسرون؟ هذا وهم بدو أو فلاحون جاهلون ما درسوا فن القتال ولا عرفوا أساليب الحروب، فكيف إن لاقوا الجيش العربي المنظم؟

هذه هي حقيقة اليهود: إنهم لا يزالون أهل الجبن والمذلة، ولا يَلقَون عرباً في ميدان إلا ظفر بهم العرب، ولو لم تُخدع الدول العربية يومئذ بخدع

أميركا وإنكلترا وتهادن تلك الهدنة لألقي اليهود في البحر.

فلا تخشوا اليهود ولا تظنوا أن السلاح غيّر طبائعهم؛ إن السيف في يد الجبان عثرة له عند الهرب. وما هذا الذي أقول حماسة ولا خيالاً، ولكنه الحق الذي وقع أمس وما قبله.

ولا تخشوا اليهود ولا تجزعوا من المال الذي أمدتهم به أميركا والسلاح الذي أعطتهم، فإنهم لا يقومون بهذا كله لدولة واحدة من دول العرب. ولكن لا تستهينوا بهم وتقعدوا عن الاستعداد لهم وتطمئنوا إلى شجاعتكم وجبنهم وعزتكم وذلهم، فإن الرجل إن احتقر عدوه فلم يستعدّ له غلبه العدو، وإنْ بالغ في خشيته وانقطع قلبه من خوفه لم يستطع أن يحاربه.

[كلمات صغيرة: لا تخافوا اليهود (١٩٤٩)]

نعم؛ لقد هُزمنا في فلسطين، ولكنها لم تُهزَم فينا إلا الأخلاق التي قبسناها من غيرنا وتركنا لها أخلاقنا. ما هُزم إلا التردد والاختلاف والثرثرة والكلام الفارغ، وإيثار الزعماء مصالحَهم على مصالح الأمة، واتخاذ الإنكليز والأميركان أولياء... أمّا سلائق العروبة، أما خلائق الإسلام، أما الإرث الذي تركه محمد ﷺ في عروقنا -معشرَ العرب- وصَبَّه في دمائنا، فلم يُهزَم ولن يهزم أبداً.

وإن لكل أمة أياماً لها وأياماً عليها، وليس العار أن يُغلَب البطل، ولكن العار أن يجزع مِن الغَلَب ويرضاه ولا يعاود الكفاح. ولقد مرّ علينا في تاريخنا مصائب أشد هولاً، لقد قامت في هذه البقعة من فلسطين دولة أقوى من هذه الدولة الكسيحة، دولة زحفت أوربا كلها لتقيمها وتحميها فعاشت أكثر من مئة سنة، فأين هي اليوم؟ هدمها رجل واحد اسمه صلاح الدين.

فلا تجزعوا كثيراً من ضياع فلسطين، بل اجزعوا من المصيبة التي هي أكبر من ضياع فلسطين

ومن ضياع بلاد العروبة كلها لا أذن الله. أتدرون ما هي؟ هي أن تخسروا إيمانكم بأنفسكم وماضيكم، وأن تفقدوا كبرياءكم وتنسوا عزتكم وتجهلوا مكانكم في هذه الدنيا.

تلك هي المصيبة حقاً، ولن تكون أبداً. ولئن داخل الضعف نفوساً قد اكتهلت وشاخت في ظلام الماضي القريب، فسيكون من هؤلاء الأطفال شعب نشأ في نور الاستقلال، وستلهب دمَه ذكرياتُ عشرة آلاف معركة مظفَّرة خاضها الجدود، وستدفعه إلى ميادين التضحية والبذل حتى يطهّر أرض الوطن من إسرائيل، ويغسل بالدم هذه الصفحة التي كتبها في تاريخنا التردد والتخاذل والانقسام، وحتى يعيد مجد الماضي، فيقرأ الطلاب في المدارس بعد حين خبر هذه الدولة التي قامت يوماً في فلسطين باسم دولة «إسرائيل» كما نقرأ نحن اليوم خبر الدولة التي أقامتها من قبلُ جموعُ الصليبيين.

ومَن شَكَّ في هذا لم يكن عربياً، ولم يكن مسلماً.

[مقالات في كلمات:
نعم، لقد هزمنا! (١٩٥١)]

-٦٧-

إننا ما هُزمنا في حزيران (يونيو) سنة سبع وستين، بل هُزمت فينا المبادئ المخالفة للإسلام، هُزمت فينا الخلائق التي أخذناها من عدوّنا، هُزم فينا خُلُق الانقسام، خُلُق التردد والانحراف.

على أن الهزائم لا تقتل الأمم. كل أمة في الدنيا تَغلِب وتُغلَب، ولكن العاقبة لمن يثبت على حقه ويعاود المعركة من جديد. بولندة مُحيت من خريطة أوربا عدت مرات ثم أعيدت، ورسول الله ﷺ انهزمت جيوشه مرتين، ولكنه سرعان ما ردّ الهزيمة وحوّلها إلى نصر. لقد كان -عليه الصلاة والسلام- متحلياً بالروح الرياضية، فلا يُطغيه الانتصار ولا تَحْطمه الهزيمة، بل يتخذ من المعركة درساً ينفعه في معركة أخرى.

[المقدمات: مقدمة كتاب «عبقرية خالد بن الوليد العسكرية» (١٩٨٦)]

-٦٨-

إننا لم نُغلَب في فلسطين، إنما غُلِبت فينا خلائق الثقة بالأعداء والإصغاء لهم والاسترشاد برأيهم، حتى منعونا (أو منعوا جيوشاً من جيوشنا العربية) من أن تقاتل، ثم دفعونا دفعاً إلى هذه الهدنة على أيدي رجال هم منا ولكنهم شرٌّ علينا من المستعمر، لأن المستعمر عدوّ سافر وهؤلاء أعداء مقنَّعون. على أيدي رجال شَبُّوا وشابوا على الولاء للمستعمر، يوالونه أكثر مما يوالي المؤمنُ ربَّه، ويُخلصون له أكثر من إخلاص المصلّي لمولاه، يكونون نِعاجاً بين يديه، فإذا خرجوا على شعوبهم لبسوا فوق النعجة جلدة الأسد؛ هؤلاء هم الذين جعلونا نُغلَب في فلسطين.

وما غَلَبَنا اليهودُ، يجب أن يفهم كل عربي يسمع حديثي أن الذين غلبونا ليسوا اليهود بل الإنكليز والأميركان، وما غلبونا في ساحة المعركة المكشوفة، بل بالدسّ والكيد واستغلال رجال هم خائنون لنا، ونحن مع ذلك نولّيهم علينا ونُحكّمهم فينا.

هذه حقيقة يجب أن يفهمها كل رجل وكل

امرأة وكل طفل، وأن يعلّمها المعلمون تلاميذَهم في دروس التاريخ، وأن يعلّموهم معها أننا نستطيع أن نطرد اليهود في كل وقت إذا تركتنا هذه الدول نعمل، إذا تركونا نستعمل حقنا المشروع في الدفاع عن أنفسنا. إننا نستطيع -إذا صدَقْنا العزم- أن نطردهم على رغم هؤلاء الكبار، بل نستطيع أن نحارب الدول الكبار نفسها. وهذا دليلي قائماً، هذا الدليل المشهود في بور سعيد: أما ردّت هذه البلدةُ الواحدة الصغيرة إنكلترا وفرنسا تنبح معهما كلاب الأرض اليهود؟

[هُتاف المجد: لا تنسوا فلسطين (١٩٥٧)]

-٦٩-

لا يا أستاذ، لا والله! ليس الشعب العربي، ولكنّ رؤساءه وقادته هم الذين أضاعوا فلسطين، لا الشعب، وهم الذين أخطؤوا أو أجرموا، لم يجرم الشعب.

إن هذا الشعب العربي أطيب شعوب الأرض وأصفاها جوهراً وأدناها إلى الخير وأسرعها إلى البذل. إن هذا الشعب يلبّي كل داع يدعوه إلى التضحية، لا يتأخر ولا يتردد. قم في أي بلد عربي، ثم ادعُ باسم الأرض أو باسم العرض، أو فادعُ باسم الدين، ثم انظر ماذا يصنع الناس؟

هذا هو إرث الماضي فينا، هذه هي ذكريات الأمجاد في أعصابنا، هذه هي قوة الإيمان في قلوبنا. إننا لا نستطيع أن نقعد إذا دُعينا إلى الجهاد، لأن محمداً ﷺ جعل كل رجل من أمته بطلاً على رغم أنفه.

إن الشعب يريد ممن يدعوه إلى البذل أن يبدأ بنفسه فيبذل، وممن يدفعه إلى الجهاد أن يمشي على رأس الصف إلى ميدان الجهاد، يريد زعماء

يشاركونه نَعماءه وبأساءه، يجوعون معه إن جاع ويتعبون إن تعب، يريد زعماء يقتدون بسيرة محمد وأبي بكر وعمر، لا يكذبون إن خطبوا الناس، ولا يَدْعونهم إلى الموت ويطلبون لأنفسهم الحياة، ولا يرغّبونهم في العطاء ويغلقون صناديقهم على المَنْع، ولا يضيعون مصلحة الأمة ووحدتها من أجل كرسي.

يا أستاذ، هات لي زعيماً واحداً من هؤلاء وأنا أضمن لك أن نطرد بني إسرائيل من فلسطين بالعصي والخناجر. هات لي مثل صلاح الدين وخذ مثل نصر حطين، هات لي خالد بن الوليد وخذ مثل ظفر اليرموك.

لا يا أستاذ، إننا ما فقدنا سلائقنا ولا أضعنا جوهرنا، ولكن فقدنا القادة الصالحين.

[مقالات في كلمات: جواب (١٩٥٠)]

-٧٠-

قد يقول قائل: فلماذا إذن ضاعت فلسطين؟

إن ضياع فلسطين جريمة ستحكم فيها محكمة التاريخ حين تسقط قيود المنافع والمجاملات وحُجُب الجهل والغفلة وينكشف الخفيّ ويفتضح المزور، عندئذ يستطيع التاريخ أن يحقّق في هذه الأحداث وأن يكشف ملابساتها ويحدد المسؤول عنها. على أن المحكمة الكبرى هي التي تكون يوم الحساب بين يدَي رب الأرباب، يوم لا تخفى عليه خافية، يوم لا ينفع مال ولا بنون ولا جند ولا أعوان.

إن النصر يكون بالعَدد، وإن كانت كثرة العدد لا تُجدي إن لم يكن معها العُدَد الكافية. والعَدد والسلاح لا ينفعان إن لم يكن معهما العلم، وهذا كله لا يأتي إلا بالمال.

فهل ينقصنا نحن المسلمين العدد؟ نحن ألف مليون واليهود بضعة ملايين، لو أننا (وعفوكم عني إن جئت بمثال بشع) لو أن كل مسلم بصق بصقة لأُغرِق يهود العالَم، ولو أنه نفخ نفخة وجُمعت هذه النفخات لأطارَتهم، ولو ألقى عليهم كل واحد نعله

القديم لماتوا ودُفنوا في قبر من النعال!

وإذا كان العدد لا ينقصنا، وإذا كان ما عند المسلمين من السلاح أكثر ممّا عند اليهود، وإذا كان مجموع العلماء من المسلمين، العلماء بالطبيعة وعلومها، أكثر مما عند اليهود، وإذا كنا معشر المسلمين جميعاً نملك من المال أكثر مما عند اليهود، فما الذي ينقصنا؟

إذا كان لا ينقصنا العدد ولا ينقصنا المال ولا ينقصنا السلاح ولا ينقصنا العلم، فما الذي ينقصنا؟ إن الذي ينقصنا هو الإيمان: أن نكون مع الله حتى يكون الله معنا، أن نُدخل الإسلام في المعركة، فلا نجعلها معركة استرداد الأرض فقط ولا نجعلها فلسطينية فقط ولا عربية فقط، بل نجعلها معركة إسلامية. إنها قضية المسلمين جميعاً ليست قضية العرب وحدهم.

[الذكريات ج٥: ح١٣٣ (١٩٨٤)]

-٧١-

كان دريد العصر هو فارس الخوري، الذي رأى الجادّة حين ضلّ عنها السارون فقال لنا: إن قضية فلسطين لا تُحَلّ في أروقة هيئة الأمم، ولكن تُحَل على سفوح الكرمل وشواطئ يافا وهضاب القدس، ولا تُحَل بالخطب والأشعار ولكن بالحديد والنار.

كلمة الحق، من الحق أن أسجّلها له هنا وأن أقرر أنه كان أول من عرف الطريق، الطريق الذي رأيناه الآن جميعاً. الطريق الذي يوصل وحدَه إلى استعادة الحق المسلوب والنصر الضائع، طريق المعركة الحمراء التي لا يظفر فيها إلا من حمل سلاحين: سلاح الإيمان في قلبه، وسلاح البارود في يده.

[هُتاف المجد: إلى السلاح
يا عرب (٢) (١٩٥٤)]

-٧٢-

هذي أول مرة تدرك فيها الحكومات أن ساحة المعركة ليست في ليك ساكس ولا في نيويورك، وأن سلاحها ليس الخطب ولا المذكرات، ولكن المعركة هنا، في فلسطين، والسلاح هو الدم والنار والحديد. هذا هو الطريق، قد وضعتم الآن أقدامكم عليه فسيروا قدماً. اضربوا ضربة الحق ودعوا اليهود يشتكون هم إلى مجلس الأمن، فلقد كنا في المدرسة نحتقر التلميذ الذي لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الشر فيذهب باكياً إلى المعلم، فيقول بصوت رخو وعين دامعة وشفة مقلوبة: أستاذ، هذا ضربني!

نحن لا نريد أن نظلم أحداً، ولكنا لا نريد أن نكون كعير الحي، ولا الوتد، ولا الشاة بين أنياب الذئب. إننا نحب أن نتأدب بأدب القرآن الكريم، جَلَّ من أدب، ونأخذ بقول الله، تقدّس من قول: ﴿ومَنِ اعتدى عليكم فاعْتَدوا عليه بِمِثلِ ما اعتَدى عليكم﴾. مَن ضربكم بالمدافع فاضربوه بمثلها، لا تضربوه بالكلام، ومن أخذ الإبل فاستردوا منه الإبل وأدّبوه، لا توسعوه شتماً «وأودى بالإبل»! وإن صادر اليهود أموالكم فصادروا أنتم أموال اليهود، وإن طردوكم

من منازلكم فاسترجعوا أنتم -على الأقل- هذه المنازل، واطردوهم منها كما طردوكم.

﴿وأَعِدّو لهم ما استطعتُم مِن قُوّة﴾، ودعوا الكماليات، ووفروا المال، واشتروا السلاح، وانشروا نظام الفتوّة، وافتحوا معسكرات التدريب، واجعلوا البلد كلها ثكنة كبيرة.

إن اللغة التي يفهم بها البشر اليوم هي لغة المدفع، والحق على شفار السيوف وحدّ الأسِنَّة، لا بأطراف الألسنة ولا بصحائف الكتب. فلا تتكلموا بعد اليوم إلا بلغة المدفع!

[كلمات صغيرة: خاطبوهم
بلغة المدفع (١٩٥١)]

-٧٣-

تمنيت لو أن اللصوص والمُفسدين في الأرض اجتمعوا في مكان محصور، إذن لهان الوصول إليهم وإصلاحهم أو القضاء عليهم. ولو اجتمع البعوض كله في موضع واحد لقُضي على البعوض، لأن نجاته في تفرّقه واختفائه، وأنه يضرب ويهرب ويضرّ ويفرّ فلا يوصَل إليه.

وشرٌّ من الحشرات والبعوض وجراثيم الأمراض قومُ بيغن وشامير، واجتماعُهم في فلسطين من بشائر القضاء عليهم وأن نرى تأويل قوله تعالى فيهم (وقولُه الحق): ﴿وقضَينا إلى بَني إسرائيلَ في الكتاب لَتُفسِدُنَّ في الأرضِ مرَّتَينِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كبيراً، فإذا جاء وَعدُ أُولاهُما بَعَثنا عليكم عِباداً لنا أولي بأسٍ شَديدٍ فجَاسوا خِلال الدِّيارِ وكان وَعداً مَفعولاً﴾.

[فصول في الثقافة والأدب:
وقفة عند ريع اللصوص (١٩٨٦)]

-٧٤-

إن قيام دولة إسرائيل دليل على تلك البشارة التي بشّرَنا بها رسول الله -عليه الصلاة والسلام- بأننا سنقاتل اليهود فنقتلهم.

كيف نقاتلهم وهم متفرقون؟ وهل يكون القتال إلا بين جيش وجيش؟ فلو لم يتجمعوا في فلسطين ولم يقيموا دولة، فكيف يتم القتال بيننا وبينهم؟ كيف تتحقق البشارة وهم متفرقون فوق كل أرض وتحت كل كوكب؟

فلا تشكّوا بأنفسكم، ولا يَنْقُصْ يقينكم بوعد ربكم، وثقوا أنكم إن كنتم جنداً لله فإن جند الله منصورٌ دائماً: ﴿وإنّ جُندَنا لَهُمُ الغَالِبون﴾.

[المقدمات: مقدمة كتاب «عبقرية خالد بن الوليد العسكرية» (١٩٨٦)]

إن قيامَ هذه الدولة بدايةُ النصرِ لنا والدمارِ لأهلها، الدولة التي أقامها لهم الناس ما أقاموها هم، وما كانوا يوماً قادرين على إقامة دولة. ما أقاموها بسواعدهم ولا بسلاحهم، ولكنها سواعد قوم آخرين والسلاح من أولئك القوم الآخرين.

إنْ كان بلفور أعطاهم وعداً فإن رب بلفور، رب السموات والأرض، أعطانا وعداً أصدق منه حين قال لنا رسوله: «لَتُقاتِلُنّ اليهود».

فكيف نقاتلهم وهم متفرقون في الأرض مبثوثون في الأمم، في كل بقعة ناس مختلطون بأهلها؟ كيف نقاتلهم؟ إنهم لا يقاتَلون إلا إذا اجتمعوا وصارت لهم دولة. فما قيام الدولة التي دعَوها دولة إسرائيل إلا بداية هلاك بني إسرائيل.

[قطعة من مقالة غير منشورة
في الكتب (١٩٨٩)]

-٧٦-

إن الأمة التي أخرجت صلاح الدين، وهي أسوأ من حالنا اليوم حالاً وأشد انقساماً وأكثر عيوباً، لا تعجز عن أن تخرج اليوم مثل صلاح الدين.

إن نكبة فلسطين بالصليبيين كانت أشد بمئة مرة من نكبتها بإسرائيل، وقد مرَّت بسلام، فهل تشكّون في أننا سننقذ فلسطين؟ أمّا أنا فوالله الذي لا إله إلا هو، لو بقي على وجه الأرض أربعون مسلماً لما شككت في أنهم يستردونها، وإني لأشكّ فيمن يشكّ في هذه الحقيقة، أشك في إدراكه لطبيعة هذه الأمة، أشكّ في عقله، أشك في أنه عربي وأنه مسلم(١).

وإذا عجزنا نحن عن أن نعود إلى مثل سيرة صلاح الدين ليُكتَب لنا مثل نصر حطين، فسيخرج من أصلابنا من هم أتقى منا وأطهر، وسيستردون فلسطين.

[رجال من التاريخ: فاتح القدس (١٩٥٠)]

---

(١) وهذا بعد أن نغير ما بأنفسنا ونعود إلى ديننا ونجاهد لإعلاء كلمة ربنا.

-٧٧-

إن قضية فلسطين لن تموت، لأنها عقيدة في قلب كل مسلم. هل سمعتم أو قرأتم أن عقيدة يحملها في قلبه ألفُ مليون يمكن أن تموت؟ إن الناس يموتون في سبيل العقيدة، وما ماتت عقيدةٌ قطّ من أجل حياة إنسان.

إنها ليست قضية أهل الضفة والقطاع... إلى متى تقولون «الضفة والقطاع»؟ إنها «فلسطين». إن اليهود يريدون أن يُنسى اسم فلسطين، فلا تكونوا عوناً لهم على ما يريدون.

ليست قضية أهل فلسطين وحدهم ولا قضية العرب. لماذا تسمّونها عربية وفي العرب من لا يرى فيها رأيَكم ولا يَدين بدينكم ومن قد يكون هواه مع عدوكم؟ ولِمَ لا تجعلونها إسلامية؟ إن أيدي المسلمين جميعاً تمتد إليكم لتكون معكم إن جعلتموها جهاداً في سبيل الله ودفاعاً عن المسجد الأقصى والأرض التي باركها الله حوله، فلماذا لا تصافحون هذه الأيدي فتصير مع أيديكم يداً واحدة على عدوهم وعدوكم؟

[هُتاف المجد: قصتنا مع اليهود (١٩٨٩)]

-٧٨-

ما ذهبَت عزة الإيمان من نفوس المسلمين ولكن خَبَتْ نارُها فهي تحتاج إلى من ينفخ فيها.

إن طال يوم الصهاينة في فلسطين فلقد مرّ بها يوم أطول وتسلّط عليها عدوّ أكبر، الصليبيون، أي دول أوربّا كلها، ومن بعدهم المغول والتتر، أي قبائل المشرق كلها. فدعُوا أمريكا تتخلّى عن مدّهم بالسلاح والمال وروسيا عن مدّهم بالرجال، ثم انظروا كم تعيش دولة إسرائيل؟ والله يمدّ للظالم ثم يأخذه.

[الذكريات ج٣: ح٦٨ (١٩٨٣)]

-٧٩-

لا يا سادة؛ أنا لا أخشى قوة اليهود، ولكن أخشى تخاذل المسلمين. إن اليهود ما أخذوا الذي أخذوه بقوتهم ولكن بإهمالنا، إن إهمال القوي هو الذي يقوّي الضعيف.

وما أخذوا الذي أخذوه بأيديهم، ولكنْ بأيدي من يدفعهم ويحميهم، بأيدي الدول الكبرى التي تتركهم يضربوننا غدراً ومكراً، فإذا أردنا أن نَمُدَّ أيديَنا لرد الضربة أمسكوا بأيدينا، كالولد المدلَّل الذي يمشي وراءه الخادمُ المسلح، يضرب الشابَّ القوي الذي يستطيع أن يخنقه بيد واحدة، فإذا أراد الشاب أن يدفع عن نفسه لوّح له الخادم ببندقيته.

ونحن ما غُلبنا في فلسطين، ما غُلبنا لأننا ما حاربنا، ما تركونا نحارب!

ولكن الخادم المسلح لا يبقى دائماً واقفاً يحمي الولد، ولا بد أن يأتي يومٌ نستطيع فيه أن نقوم في الميدان نحن واليهود وجهاً لوجه، وسيرى الناس يومئذ ماذا يكون.

[هُتاف المجد: في ليلة الإسراء (١٩٥٧)]

-٨٠-

لا، ليست معركتنا مع اليهود. ومتى كان اليهود أهل قتال؟ أَيومَ قال لهم رسولهم: ﴿قاتِلوا﴾ فقالوا: ﴿اذهَبْ أنتَ وربُّكَ فقاتِلا﴾؟ أم يوم دعاهم إلى الفتح وقد مهّد الله لهم أسبابه وفتح لهم بابه، فارتجفوا كالشياه المذعورة وقالوا: ﴿إنّ فيها قوماً جَبَّارين، وإنّا لن ندخُلَها حتى يَخرجوا منها، فإنْ يَخرجوا منها فإنّا داخِلون﴾؟

هذه بطولاتهم؛ يريدون مَن يحارب عنهم، مَن يُخرج لهم العدوّ من القلعة ليدخلوها فاتحين! وما تبدّلت حالهم، إنهم لا يزالون كما كانوا، إنهم يقاتلون بسلاح سواهم ويلوّحون بقوة غيرهم.

[هُتاف المجد: قصتنا مع اليهود (١٩٨٩)]

-٨١-

إن الذين دعوتموهم «جنود الحجارة» ما ضعفوا وما استكانوا، بل جادوا بأرواحهم، «والجودُ بالروح أقصى غاية الجود». ثبتوا هذه الأيام الطوال، فما عليهم ملام، ولكن نحن، نحن المسلمين الذين فرض الله علينا أُخُوَّتهم وأوجب علينا نصرتهم، نحن ألا نُلام؟

أَنَدَعهم وحدهم يواجهون بالحجارة الدبابات والمدافعَ والرصاصَ والغاز الخانق وهاتيك الأهوال والمصائب؟ أيكفينا في شرع الله، في أدب الفروسية، في قواعد الشرف، أن نراهم في الرائي وأن نسمع عنهم في الإذاعات، وأن نُعجب بهم وأن نُصفّق لهم؟

فيمَ التّقاطُعُ في الإسلام وَيحَكُمُ
وأنتـمُ -يـا عبـادَ الله- إخـوانُ؟
ألا نُفـوسٌ أَبِيّاتٌ لـهـا هِمَـمٌ؟
أمـا على الخير أنصارٌ وأعوانُ؟

[هُتاف المجد: قصتنا مع اليهود (١٩٨٩)]

-٨٢-

صَغُرت إسرائيل أكثر لمّا بدأت هذه «الانتفاضة».
صبيان يقاتلون بالحجارة جيشاً يملك أعتى وأقسى ما أوحى به الشيطان إلى أوليائه من وسائل القتل والتدمير والهلاك، وحَسِبوها فورة حماسة تستمر ساعات ثم تخمد، تمتد يوماً أو يومين، فإذا هي تستمر الشهر والشهر الذي بعده، والشهور تتوالى والانتفاضة لا تزداد إلا قوّة، ذلك بأنها ليست حركة وطنية ولا قومية، ولا لمجرد استرداد الأرض وطرد الواغل الدخيل منها... هذه كلها مقاصد قد تشترك في مثلها أمم الأرض، بل لأنها جهاد، جهاد بالمعنى الذي عرّفه الإسلام: بذل الروح لله وحده وابتغاء الجزاء منه وحده، جهادٌ مَن يظفرْ فيه يظفرْ بنيل الأمانيّ وبلوغ الغايات، ومن يَمُتْ يَنَلْ ما هو أكبر من مُتَع الدنيا كلها: رضا الله والجنة.

كتب الله لهذه الانتفاضة الاستمرار والقوة كما كتب مثل ذلك للحرب الجهادية في الأفغان، لأنهما قامتا لله لا للدنيا، وما كان لله فهو المتصل الباقي.

[هُتاف المجد: قصتنا مع اليهود (١٩٨٩)]

-٨٣-

يقولون: إنكم تريدون أن تُلقوا بالإسرائيليين في البحر. وأنا أسأل الإنكليز الذين هم رأس البلاء ومبعث الداء، وأسأل الأميركان الذين يؤيدون الظلم وينصرون الاعتداء، وأسأل الروس الذين هم معنا بالمقال وهم يُمِدّونهم بالرجال، أسألهم جميعاً: ماذا يصنعون لو جاء شعب نذل خسيس سارق مجرم يريد أن يطردهم من ربع لندن أو واشنطن أو موسكو ويملكها من دونهم، ثم يعمل على التوغّل في بلادهم وسرقة طريفهم وتالدهم وإفساد بناتهم وأولادهم، ماذا يصنعون بهم؟ إنهم إن لم يلقوهم في البحر شرّدوهم في القَفْر أو وضعوهم في الأسر، وإلا فماذا؟ خبِّروني: ماذا تصنع الأمم بالواغل عليها يسرق ديارها ويمحو آثارها؟ ماذا يفعل من يقتحم اللص عليه بيته ليطرده منه ويَسكنه من دونه: هل ينصب له المائدة ليأكل ويمد له الفراش لينام، ثم يقف باحترام ليعطيه مفتاح الدار ويمضي بسلام؟!

هذا هو السلام الذي تريده إسرائيل والذي كان منّا من يرحب به ويصفّق له. يقولون: وإلى أين نذهب بهؤلاء اليهود؟ لقد ألقى هذا السؤالَ رئيسُ

أميركا الذي كسب الحرب، ألقاه على ابن الصحراء العبقري الملك عبد العزيز، فردّ سؤاله بسؤال وجّهه إليه هادئاً، قال له: من أين جاء هؤلاء؟ أرجعوهم إلى بلادهم التي أُخرِجوا منها. لقد بُهت روزفلت ولم يقدر على الجواب لأن الحق غلّاب.

قالوا: إنكم رفضتم التقسيم ثم جئتم تطالبون بالتقسيم! نحن كمن كان يمشي آمناً فاعترضه مجرم خطف كيس نقوده وفيه ألف ريال، فلحقه يطالبه به فقال: تأخذ خمسمئة لك ولي خمسمئة. فأبى، وحقّ له الإباء، فالمال ماله والكيس كله له، فشدّ اللص يده على الكيس وعدا هارباً، فلما يئس منه قال: طيّب، هات الخمسمئة. قال: لا، ذاك عرض مضى، تأخذ أربعمئة؟ فأبى ومضى اللص، فلما يئس منه قال: طيّب، هات الأربعمئة. قال: لا، ثلاثمئة. تأخذ ثلاثمئة؟

رفضنا التقسيم، وما لنا ألّا نرفضه؟ مَن يرضى أن تُقسَّم داره بينه وبين اللص الذي يقتحمها عليه؟ ورجعنا فطالبنا به حتى لا تذهب الدار كلها ما دام قد غلب الباطل وفُقد النصير.

أنا لا أريد ولا أقدر أن أؤرّخ قضية فلسطين،

أنا أدوّن ذكريات لا أكتب تاريخاً. ولكن أقول: إنه ليس في تاريخ الظلم والعدوان مثل قضية فلسطين، ولا في تاريخ التخاذل والانقسام وقلة الاهتمام مثل موقفنا من قضية فلسطين، ولا في تاريخ التعاون على الإثم والعدوان مثل موقف الدول في غرب الأرض وفي شرقها من قضية فلسطين. وما لنا إلا الله، فهل نعود إليه؟

[الذكريات ج٢: ح٦٢ (١٩٨٣)]

-٨٤-

ما الحق يا ناس؟ خبِّروني. لا أسأل عن الحق المجرَّد الذي يقابل الباطل، بل الحق الذي هو المُلْك. الرغيف الذي اشتريته بمالك حقك، فإن غصبه منك غاصب أقوى منك وأكله، فأين بقي حقك؟ وماذا ينفعك أن يكون «الحق» لك والرغيف في بطن الرجل؟

ماذا يفيدنا أن الحق بامتلاك فلسطين لنا، وفلسطين نفسها في أيدي اليهود؟ وإلى متى تكرر مهزلة «أوسعته شتماً وأَوْدى بالإبل»، مهزلة الأعرابي الذي بعثته أمه يرعى جمالها، فرأى العدو، فوقف يسبه ويلعن أباه وجَدّه حتى تعب لسانه وكَلَّ، فقعد يستريح وترك العدو يذهب بالإبل! ومهزلة الزعماء الذين ملؤوا الدنيا ادّعاء وفخراً وحماسة وهجاء لليهود واحتقاراً، ثم ناموا وأخذ اليهود فلسطين؟

وإلى متى نبقى مغفلين مساكين، لا نفهم أن القوة هي شرع هذه الدنيا: قوة العلم، وقوة المال، وقوة الاتحاد، وقوة الجيش، وقبل ذلك كله قوة الإيمان وقوة الإرادة؟ وأن الحق لمن يأخذه، لا لمن

يتغنى بذكره وينظم فيه القصائد؟

فانزعوا من نفوسكم -يا أيها العرب- هذا الورع البارد وهذا الأدب الرقيع، فقد أطعتم «هيئة الأمم» وعصاها اليهود، ووفيتم وغدروا، وعدلتم وجاروا، ومدحتكم جرائد العالم بأنكم أولاد طيبون مهذبون، وذمتهم بأنهم شياطين مفسدون وأنهم قتلة مجرمون. فماذا كانت النتيجة؟ أخذ اليهود فلسطين، واعترفت بحكومتهم دول هيئة الأمم التي ذبحوا رسولها برنادوت!

فحَسْبكم غفلةَ يا عرب! اخلعوا صوف الحُمْلان والبسوا جلود الذئاب لئلا تأكلكم الذئاب. مدّوا أيديكم فخذوا حقكم؛ لا تطلبوه من أحد، فليس في الدنيا أحد يعطيكم حقكم. أقلّوا الكلام وأكثروا الفعال، واتحدوا واستعدوا.

يا أيها العرب: إنه قانون تنازع البقاء، إن هذه الدنيا للمحقّين الأقوياء.

[مقالات في كلمات: الحق والقوة (١٩٥١)]

إن هذه الدولة لا يمكن أن تدوم، لا يمكن أن يعيش مليون يهودي في أرض مقتطَعة من بلاد فيها خمسمئة مليون. إن مسلمي الأرض قد بلغوا الآن بالإحصاء خمسمئة مليون[١]، كل واحد منهم يرى من الواجب عليه لربه ولدينه ولأمته أن يعمل شيئاً لطرد اليهود من فلسطين. والمجنون وحده هو الذي لا يبالي بعداوة خمسمئة مليون، لأنه لو كان مكانهم خمسمئة مليون قط، خمسمئة مليون نعجة، لاستطاعت أن تكتسح في طريقها دولة إسرائيل!

ولن نترك هذه الدولة تستريح أبداً، وسنلقّن أولادَنا من المهد بُغضَها والعملَ على دفع شرّها، حتى يصير ذلك عقيدة راسخة في كل نفس وحقيقة مسلَّمة في كل ذهن، فكلما مرت الأيام وطال الأمر عَظُم الغضب وكبر الثأر وكثر المطالبون. فلا تحسبوا أن الزمن يحل المشكلة، لا، بل هو يشدها ويحكمها.

---

(١) أي يوم نشر هذه المقالة (وقد نشرها في السنة التي وُلدت أنها فيها) وهم اليوم يزيدون على ثلاثة أضعاف عددهم يومئذ (مجاهد).

وهي اليوم بذرة في النفوس تسقيها عزة المسلم وكرامة العربي وغَضْبة المظلوم، ثم تصير نبتة، ثم تصبح شجرة، ثم تمسي دَوْحة ممتدة الجذور باسقة الأغصان لا تقوى على اقتلاعها العواصف.

ولن يكون صلحٌ أبداً، أبداً، واللسان الذي يتحدث في الصلح يُقطَع، واليد التي تمتد للصلح تُبتَر. لا صلحَ أوْ يعودَ الحقُّ إلى نِصابه والوطنُ إلى أصحابه.

إن قضية يؤمن بها ويدافع عنها ألف شخص لا تموت، فهل تموت قضية فلسطين وقلوب خمسمئة مليون إنسان تخفق بذكرها من العرب المسلمين، والمسلمين غير العرب، والعرب غير المسلمين، من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب، من الصين والملايا إلى الجاليات الإسلامية في باريس ولندن ونيويورك وبونس آيرس، ويلقّنون قضيتَها أبناءهم، يَرضعونها مع لبن الأمهات، ويتلقونها مع خبز الآباء وألف باء المعلمين؟

[هُتاف المجد: في ليلة الإسراء (١٩٥٧)]

-٨٦-

لقد علّمونا في المدرسة أن كل أمر مخالف لطبيعة الأشياء التي طبعها الله عليها لا يمكن أن يدوم، فهل ترونه أمراً طبيعياً أن تعيش دولة صغيرة قائمة على الباطل، على سرقة الأرض وطرد سكانها، ولو صارت ثكنة ممتلئة بالجند ولو غدت قلعة محصَّنة الجوانب، ولو بلغ سكانها مليونين أو ثلاثة ملايين؟ هل يمكن أن تعيش وسط بحر يمتد على مدى ثلث محيط الأرض فيه ألف مليون كلهم عدوٌّ لها، عادَوها لظلمها وبغيها لا كرهاً لها وعدواناً عليها؟ ولو هي عاشت عشراً أو عشرين أو سبعين أو ثمانين عاماً، هل تعيش الدهرَ كله؟

وما سبعون أو ثمانون عاماً في أعمار الأمم؟ لقد بقي الاستعمار البرتغالي في أنغولا وموزمبيق مثلاً خمسمئة سنة، فهل استمر الاستعمار البرتغالي لأنغولا وموزمبيق؟ وقُسمت بولونيا (بولندا) مرات وتقاسم جيرانُها أجزاءها، ثم عادت بولونيا. بل لقد غزا ديارَ الشام مَن هم أكثر من اليهود عَدداً وأقوى جنداً وعُدداً وأقاموا فيها دولاً عاشت دهراً، ثم دالت هذه الدول وعادت الأرض إلى أصحابها. أما بقيت

القدس قرابة قرن من الزمان بيد الصليبيين، فهل دام في القدس حكم الصليبيين؟

[هُتاف المجد: قصتنا مع اليهود (١٩٨٩)]

-٨٧-

إن هتلر إنْ قِيسَ به هذا النجس بيغن عُدّ من الأطهار! على أني ألعن هتلر في قبره (إن كان له قبر)، لا لما زعموا كذباً أنه فعله باليهود، بل لأنه لم يخلص البشرية نهائياً من رجس اليهود. إن الذي فعلوه في لبنان سيعجز أبلغ المؤرّخين لساناً وأفصحهم بياناً عن نقله كما وقع إلى الأجيال القادمة من البشر.

ما نيرون؟ ما جنكيز؟ ما هولاكو؟ ما وحوش الغاب وعقاربه وحيّاته وحشراته؟ ما الخنازير البرّية؟ كل أولئك إن قيسوا بهذين القذرين، بيغن وشارون، صاروا من أهل الطهارة والخير، صاروا أطهاراً أخياراً لأنك وضعتهم مع من هو أنجس وألعن.

كلا، ما رأى تاريخُ البشر قاتلَين مجرمين كهذين الكلبَين المسعورَين.

لقد قطعاني عن إتمام الكلام الذي بدأته فإلى الحلقة الآتية إن شاء الله، وقطع الله عليهما الطريق إلى كل خير وسدّ دونهما الباب إلى كل سعادة، وجعل ما فعلاه في لبنان مرضاً موجعاً مشوِّهاً في جسدَيهما، وقلقاً قاتلاً ورعباً دائماً في نفسيهما،

وانزعاجاً مستمراً لا يذوقان معه استقراراً[1]، لا يُعرَف له سبب ظاهر ولا يُلفى له دواء شاف، ينغّص عليهما العيش حتى لا يُطيقانه، ويحبّب إليهما الموت فلا يجدانه، ويجعل ما أجرماه لعنة عليهما باقية فيهما متسلسلة في أعقابهما، ممتدة في ذراريهما شاملة أهلَهما وأحباءهما، حتى يروي التاريخ ما حل بهما، فيجزع كل باغٍ ظالم وكل جبّار مغرور أن يحل به ما حل بهما، ولَعذاب الآخرة أشد وأبقى.

﴿ولا تَحْسَبَنَّ اللهَ غافلاً عمّا يَعمَل الظالمون، إنّما يؤخِّرُهم لِيَوم تَشخَصُ فيه الأبصارُ﴾.

[الذكريات ج٢: ح٤٠ (١٩٨٢)]

---

(١) استجاب الله دعائي على بيغن بين نشر هذا الكلام في الجريدة وطبعه في الكتاب، فغدا كالسامري معتزلاً في داره نافراً من البشر ينفر منه خيار البشر، وسيأتي دور شارون بإذن الله.

-٨٨-

... أمّا حُكم الإسلام في هذا الذي وقع ويقع في المخيمات في لبنان فلا والله، لا الإسلام دين الحق يجوّزه ولا النصرانية ولا اليهودية، ولا تُقِرّه أعراف اللصوص وقُطّاع الطرق ولا طبائع الذئاب في الغاب والحيّات والعقارب في الجحر والسرداب.

كل أولئك يُنكِرونه ويأبَونه ويصرخون -لو كان لهم لسان- بالبراءة منه، ولو نُسب إلى واحد منهم فِعلُه لعُدَّت نسبته إليه إهانة له.

لا إله إلا الله، إنه على كل شيء قدير، يخلق على هيئة الإنسان مَن ليس فيه شيء من الإنسانية! وإلا فكيف يتلذّذ هؤلاء برؤية طفل رضيع ما جنى جناية ولا ارتكب إثماً، على صدر أم ما حملت سلاحاً ولا خاضت حرباً، يُمنع الطعام والشراب عنها حتى يجفّ ثديها ويغيض في عروقها دمها، وتموت مرتين قبل الممات: مرّة من جوعها ومرة من تمزُّق قلبها حزناً على ولدها الذي يذوي ويذوب بين يديها؟

أهذا إنسان؟

إنه شيء لا أعرف له في اللغة العربية اسماً يدل عليه، فيا ضيعة عمري في دراستها ورواية أشعارها ومعرفة أخبارها وكشف أسرارها! لقد تبيّن لي اليوم أني جاهل بها لأني لا أجد ألفاظاً تعبر عما في نفسي من الإنكار ومن الاحتقار، ولما لا أعرف كيف أعبّر عنه من المشاعر على ما يصنع أناس يقولون إنهم من البشر مع الأطفال والنساء في المخيمات في لبنان[1].

لو قرأنا مثل هذا الذي نرى عن طغاة القرون الأولى، من قبل أربعة آلاف سنة، لَما محَت أربعةُ آلاف سنة هذا الإثم ولَما غفرناه لهم بالتقادم ومرور الزمان.

والناس يتحاربون منذ كانت الحروب، ولكن الفارس المسلَّح لا ينازل إلا فارساً مسلَّحاً، ما عهدنا رجلاً شريفاً وبطلاً معروفاً يحارب النساء والأطفال. وربما حاصر الجيشُ قلعةَ عدوّه ليسلّم، ولكن ما عهدنا مقاتلاً شريفاً يحاصر نساء وأطفالاً حتى يموتوا.

(١) المقصود هو حصار حركة «أمل» الشيعية للمخيمات الفلسطينية في لبنان سنة ١٩٨٧. اقرأ الحاشية الآتية في الصفحة ١٦٣ (مجاهد).

أنا أفهم أن يُمنع وصول السلاح إلى الجند المحاصَرين، أمّا أن يُمنع وصول الطعام إلى الجائعات والجائعين من النساء والأطفال ممن لا يحمل السلاح ولا يخوض المعارك فشيء لا نستطيع أن نفهم له معنى.

إنْ كان الذي يفعل هذا يُعَدّ إنساناً فأنا أخجل بعد اليوم أن أكون من بني الإنسان!

[الذكريات ج٨: ح٢٢٨ (١٩٨٧)]

-٨٩-

ليعلم الناس جميعاً -في لبنان وفي غير لبنان- أنّ أدنى العذاب في الدنيا عذابُ الضمير، وربما تنبّه الضمير الغارق في سباته. لمّا كان حُكم صدقي باشا في مصر (والذي شكوناه منه لا يعدل نقطة من كأس مما وجدناه بعده) قال فيه حافظ إبراهيم مقطوعة لم يجرؤ على نشرها، ولكن تناقل الناس أبياتاً منها، ومنها:

لاهُمَّ[1] أَحيِ ضميرَهُ ليذوقَها
غُصَصاً وتَقتُلَ نَفْسَهُ الآلامُ

فأول العقاب في الدنيا عذاب الضمير إذا تيقّظ. إذن فليحاول هؤلاء إصلاح ما أمكن إصلاحه مما أفسدوه، وهيهات أن يقدروا! هل يردّون الروح على من مات؟ هل يأملون أن يفقد الناس كلهم ذاكرتهم فينسوا ما كان؟ إن هذا الذي نرى في المخيمات سيُقرأ تاريخه في المدارس بعد ألف سنة، فيصبّ المدرّس والتلاميذ اللعنات على أجداث مرتكبيه ولو

(١) أي «اللهمّ»؛ دعاء إلى الله (مجاهد).

فَنِيَت عظامهم واستحالت تراباً[1].

[الذكريات ج٨: ح٢٢٨ (١٩٨٧)]

---

(١) نُشرت حلقة «الذكريات» التي اقتطعت هذه السطور منها في أواخر شباط (فبراير) من عام ١٩٨٧، في وقت اشتدت فيه وطأة حصار حركة «أمل» الشيعية للمخيمات الفلسطينية في لبنان، حتى أكل الناس في المخيمات المحاصَرة الكلاب والقطاط والفئران، ومات منهم كثيرون من شُحّ الماء وانعدام الغذاء والدواء.
كثيرون من قرّاء هذا الكتاب لا يعرفون تلك الأحداث التي مات بسببها الآلاف من الأبرياء، حينما شَنَّتْ ميليشيات «أمل» الشيعية حرباً شرسة ضد المخيمات في بيروت وصيدا وصور، حرباً بدأت في أيار (مايو) من عام ١٩٨٥ (رمضان ١٤٠٥) واستمرت أكثر من سنتين، وكان أوضح معالمها الحصار المتكرر الطويل للمخيمات.
لقد مات في ذلك الحصار غير الأخلاقي آلاف من المدنيين، من رجال ونساء ومسنّين وأطفال، ومَن نجا منهم من رصاص المحاصِرين أهلكه الجوع والمرض.
وبلغ من وحشية المقاتلين الشيعة أنهم اقتحموا=

= مستشفى غزة في مخيم صبرا فقتلوا أكثر مَن فيه من المرضى والجرحى والأطباء والممرضين، ومنعوا خروج أي مدني من المخيمات أو دخول أي غذاء أو دواء، حتى الماء، وكثيراً ما سمحوا للنساء بالخروج لإحضار الغذاء أو الماء ثم قتلوهنّ غيلة وهنّ يحملن الماء والغذاء على رؤوسهن!

وفي الشهور الأولى من عام ١٩٨٧ ، قريباً من وقت نشر هذه المقالة، كانت مخيمات بيروت تعاني من أشد أيام الحصار وطأة وأكثرها فتكاً، وقد بلغ من قسوتها ووحشيتها أن «اضطُرّت» الحكومات العربية إلى التدخل وممارسة بعض الضغط، ففُكّ الحصار أخيراً في السابع من نيسان (أبريل) من تلك السنة، بعد أكثر من مئة وخمسين يوماً من الحصار المُحكَم الخانق. إنها مأساة لن ينساها التاريخ (مجاهد).

إلى القرّاء الكرام

لقد بذلتُ في تصحيح هذا الكتاب غايةَ ما استطعت من الجهد، لكنّي لا آمَنُ أن يكون فيه خطأ سهوتُ عنه، لأن الكمال ليس لأحد من البشر، إنما هو من صفات خالق البشر. فأرجو أن يَمُنّ عليّ قارئه (وقارئ سائر كتب جدّي التي صحّحتُها وأعدت إخراجها من قريب) فينبّهني إلى أي خطأ سهوت عنه لكي أتداركه في الطبعات الآتيات، وأنا أشكره وأدعو له اللهَ بأن يجزل له الأجر والثواب.

مجاهد مأمون ديرانية
mujahed@al-ajyal.com

الأفكار
الطنطاوية

(١) الإيمان والرقائق

(٢) الدين والدعوة

(٣) هذا هو الإسلام

(٤) دفاع عن الفضيلة

(٥) المجتمع المسلم

(٦) الأمة الإسلامية

(٧) الاستعمار والجهاد

(٨) الأخلاق الاجتماعية

(٩) الزواج والأسرة

(١٠) النفس والحياة

(١١) العلم والتعليم

(١٢) اللغة والأدب

المنتخَبات الطنطاويّة

(١) وقائع وحكايات

(٢) صور من الحياة

(٣) صور وذكريات

(٤) نوادر وطرائف

(٥) رجال ومواقف

(٦) أخبار من التاريخ